ثقافات الشعوب

@ketab_n
28.10.2014

@ketab_n

رولدان وقرن الثور

حكايات شعبية من بلاد الباسك

جمع: ماريانا مونتيرو
ترجمة: أحمد مغربي

رولدان وقرن الثور

حكايات شعبية من الباسك

جمع:
ماريانا مونتيرو

ترجمة:
أحمد مغربي

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رولدان وقرن الثور

حكايات شعبية من الباسك

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

رولدان وقرن الثور: حكايات شعبية من الباسك

© حقوق الطبع محفوظة

هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

GR162. B3. M512 2009
Montiero, Mariana
[Legends and Popular Tales of the Basque People]
رولدان وقرن الثور: حكايات شعبية من الباسك/ جمع ماريانا مونتيرو؛ ترجمة أحمد مغربي.
– ط.1.– أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
160ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 7- 316-01-9948-978
ترجمة كتاب: Legends and Popular Tales of the Basque People
1 - القصص الشعبية الإسبانية. 2 - القصص الشعبية الفرنسية. 3 - الحكايات الإسبانية.
أ- مغربي أحمد. ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبوهواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التتان

info@kalima.ae
www.kalima.ae
كلمة KALIMA

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+

www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	9
أكويلار	26
أرغويدونا	56
1 ـ مايتاغاري إيتورينو (2)	87
2 ـ ساحرة «زالدن»	93
3 ـ الإعتراف	101
4 ـ المبارزة	108
5 ـ مايتاغاري	115
6 ـ الحاج	123
خاتمة	133
رولدان وبوق قرن الثور	135

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها – مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة – تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

Twitter: @ketab_n

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه – وإن بلغة أخرى – جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

Twitter: @ketab_n

تقديم

أضع أمام القارئ هذه الخرافات والقصص الخيالية والأناشيد القصصية والحكايات الشعبية الباسكية[1]، التي تمتد جذورها إلى تقاليد قديمة شكّلت جزءاً من موروث الباسكيين عن أجدادهم، وتناقلته شفاههم عبر الأجيال. وأظن أنه من المناسب الحديث عما تمتلكه هذه الحكايات والخرافات من أهمية أخلاقية وتاريخية، إذ تشكّل صدى أميناً وانعكاساً صادقاً للمشاعر التي سادت في الأجيال الماضية.

مضى زمن كان ينظر فيه بازدراء إلى هذه الخرافات، من قِبَل بعض السطحيين ممن لم يتمكنوا من استيعاب الدروس العظيمة والمشاعر السامية التي تكمن خلف شكلها البسيط. أما اليوم فقد أضحت هذه الحكايات والخرافات موضع دراسة معمّقة. وقد تمكنت عقول المفكرين المعاصرين من سبر غور الظلال التي تركتها المجتمعات الغابرة التي بادت حاملة معها أسرار فكرها وحضارتها وأنماط عيشها. فهذا الإرث من الحكايات يمثل سجلاً

(1) يعيش شعب الباسك تاريخياً ضمن إقليم يمتد عبر جبال البيرينيه الغربية على الحدود بين فرنسا وإسبانيا، وتبلغ مساحة هذا الإقليم 20 ألف كيلومتر مربع. وتنقسم بلاد الباسك سياسياً بين إسبانيا وفرنسا، لكن شعب الباسك الذين ينتشرون عليها يتكلمون لغتهم الخاصة، أي الباسكية التي تعدّ من أصعب لغات العالم (م).

Twitter: @ketab_n

لمجتمعات الأسلاف، ويحتوي كنوز معارفها ومعتقداتها، ويسجّل طرائق حياتها، ويؤشّر إلى عظمة تاريخها.

يتحدّر الباسكيون، ككل الأعراق البدائية، من العائلة الأبوية عينها. وكانت لهم عادات وطقوس مماثلة، مما جعلهم يمتلكون الكثير من التقاليد التي تتشابه مع سواهم من الأمم على الرغم من الفروقات الجغرافية والدينية والمناخية وغيرها من المؤثرات المادية والمعنوية.

وفي مقابل ذلك، يتفرّد الباسكيون في قدرتهم على الحفاظ على هويتهم الوطنية وأعرافهم وعاداتهم وقوانينهم ولغتهم، من دون أن تمسسها الأعاصير التي عصفت بهم تاريخياً، وكذلك من دون أن تتأثر بالثورات الكبرى التي هزّت تاريخ أوروبا فقوّضت إمبراطوريات كبرى، وأنهكت أمماً قوية، وأبادت لغات وأحياناً أعراقاً بأكملها. وقد دفعتهم حيويتهم المميّزة وروحهم الحربية، إلى القتال على اليابسة وتحقيق انتصارات في البحر. واكتشفوا مناطق مجهولة وسيطروا عليها. وكذلك مكّنهم ذكاؤهم العمليّ من تجميع عناصر عدة وصوغها بمهارة في قانون حكيم عزّ نظيره. لقد تبعوا تلك الروح التي ميّزت عِرقهم تقليدياً. وكذلك وثقوا بها للحفاظ على مؤسساتهم وتاريخهم. وفي المقابل، لم يُدوّنوا على الورق لا تلك الأفعال المجيدة ولا مفاتيح تنظيمهم

Twitter: @ketab_n

المتين، ولا حتى تلك الروح السيادية التي تبدو راهناً غير مفهومة بالنظر إلى الحدود الضيقة لما يحوزونه من أراض وثروات. وبعد أخذ تلك الظروف جميعاً في الاعتبار، فأي أهمية تكمن في تجميع آلاف القطع المتناثرة من تقاليد تلك الأمة ومعتقداتها، التي تلتمع كالبرق في ليل داكن وتُظهر الحُجُب الكثيفة المُسدلة على الأسرار المستغلقة لتاريخ شعب الباسك المجيد؟

ثمة من يستسيغ وضع المعتقدات الشعبية في زعم مفاده أنها تنجح في تأبيد التفكير الغيبي عند الشعوب. ولسوء الحظ، يصعب إنكار ميل العامة إلى الغيبيات.

وفي الوقت عينه، تجدر الإشارة إلى أن العظماء والمبرّزون يشاطرون العامة ذلك العيب. ويُثبت ذلك أيضاً أن المعتقدات الشعبية ليست المصدر الأوحد للتفكير الغيبي. فبمقدار عجز الإنسان عن فصل الحقيقة عن الزيف في الزمان والمكان، وأيضاً في العالمين المادي والمعنوي، يسمح لنفسه بالانجذاب إلى ما هو غير مفهوم ولا معلوم. وكذلك يسعى بشغف للسير في المساحات الغامضة للمتخيّل كي يشبع حشريته وفضوله، وليحصل على تفسير آخر لما عجز عن استيعابه عقلانياً.

ليس ثمة طريق آخر لفهم الوجود المديد للغيبي عند الأعراق كلها، بغضّ النظر عن تقدمها في الدين أو الثقافة أو في الامتداد

Twitter: @ketab_n

التاريخي. فلقد استمر التفكير الغيبي في التفاعل مع روح الإنسان عبر العصور، مثلما يفعل راهناً أيضاً، متجاوزاً تأثيرات الدين والمناخ والتقاليد وغيرها.

فمن المُستطاع القول إن الإيمان بالساحرات قد تقلص في الأزمنة الحديثة. وفي المقابل، فإن عالَماً من الأرواح قد برز في الأزمنة الراهنة، بحسب ما يُصرّ كثير من الروحانيين الذين يزعمون أنهم يعيشون في تآلف تام معه. ولا يأنف هؤلاء من القول إن أرتالاً من الأرواح باتت في متناول أيديهم، وإن هذه الأرواح على استعداد أن تملأ أكثر مدن أوروبا ثقافة بالرُعب والدهشة.

وإذا ساد الميل للسخرية من تنبؤات الروحانيين وادعاءات مُمتهني فنون السحر، فإن قلّة قد لا تكترث عندما تسمع من مُسَرنِم (= من يسير أثناء النوم) أنه يستطيع، وبعينين مُغمضتين، رؤية بداية مرض السلّ في الرئة أو ملاحظة التغييرات الأولى المرتبطة بمرض مافي القلب قبل ظهرو أعراضه.

وبشكل عام، تنبع المعتقدات القديمة من الإيمان أو من شعور أخلاقي عظيم. وتُلقي أخيلتها أضواءً على فضيلة عميقة أو حقيقة كبرى. لذا، فغالباً ما تُخلّف وراءها عِظة أخلاقية أو شعوراً سامياً. ولإقامة البرهان على أن معتقدات الأسلاف مصدر للفطرة النبيلة، يكفي أن نتأمل في أبسطها. فمن لم يسمع

Twitter: @ketab_n

في مناطق الباسك، بشكل أو بآخر، حكاية أرغويدونا؟

«انقضى النهار. وجرجرت المرأة الجبلية رجليها لتصعد في الطريق الضيقة المؤدية إلى كوخها. بكت بحرقة. وغاص قلبها في حزن عميق. لقد فقدت ابنها الوحيد الذي كان شمس حياتها. وتآزر شفق الغروب والصمت المُطبِق المحيط بها والحزن الليلي الغامض، في نكء جراح قلبها. تذكّرت طفلها. وبكت. ونظرت إلى السماء. ثم مضت في طريقها. اقتربت أكثر. باتت قريبة من المقبرة التي دَفَنَت فيها قبل أيام قليلة بقايا من أحبّت.

وتراءى لها قبر ابنها. فوضعت يديها على قلبها كأنما لتمنعه من التشظّي من شدّة حزنها ومرارتها على فقدان ابنها الحبيب. وفجأة لمع نور غامض غريب فوق سور المقبرة. واقترب من الأم، متمايلاً في حركات رائعة تمازجت مع الظلال. وعندما لمحت الضوء، خرّت الأم على ركبتيها. ومدّت يديها صوب الوهج. وبصوت واهن سألته: يا ابن قلبي، أأنت سعيد؟

وتوهّج الضوء، وكأنه يهمّ بالإجابة عن السؤال. ونشطت حركته. واقترب منها أكثر. وقف قرب رأس الجاثية على الأرض. واجتاحت الأم مشاعر لم تعد تدري ماهيتها. فأغمضت عينيها. من يدرِ؟ ربما يحالفها الحظ وتسمع صوت ابنها العذب. ربما يحالفها الحظ ويمنحها قبلة طال انتظارها. ولكن الضوء تابع

Twitter: @ketab_n

ارتفاعه صوب السماء. واختفى في لُجَب من ظلال معتمة. وقفت المرأة على قدميها هنيهة. وركزت ناظريها في البقعة التي اختفى فيها الضوء. ثم راحت تناشد السماء مصلية. واستأنفت المشي صوب منزلها، باكية. وسالت دموع دلّت على استسلامها لمصيرها، فأراحتها.

في تلك الليلة، لم يجفُ الرقاد جفنيها، كما كان دأبها في ليال خَلَت. ولم تؤرقها الرؤى ولا الأشباح الوهمية. بل نامت هادئة. واستيقظت ممتلئة بالسلام الروحي. إذ أنها رأت روح ابنها. وعلِمت أن الولد الذي أفرطت في حبّه كما في البكاء عليه، لم ينسَ أمه المسكينة. وأحسّت أن طفلها الذي وهبته مشاعرها ذهب ليتحد مع أرواح ملائكة أشد حنّواً».

ما الذي تقوله هذه الكلمات؟ إذا سألت العِلم، جاءت الإجابة أن الأمر يتعلق بظاهرة بسيطة. ويقترح أن بعض الغازات التي تنجم من تحلّل الأجساد تسرّبت من جوف المقبرة. واشتعلت عند ملامستها الهواء، مما أطلق العنان لهلوسات بصرية عند الأم المسكينة المضطربة المشاعر أصلاً. وهذا تفسير صحيح وصائب. ولكن ماذا عن تلك الأم؟ هل تريحها الهلوسات أم

Twitter: @ketab_n

التفسير العلمي البارد الذي يتركها في قبضة الأسى والحزن؟

لنأخذ مثالاً آخر:

تحوم فوق مرتفعات «أمبوتو» غيوم ثقيلة قاتمة تنذر بالعواصف. وعند رؤيتها، يهرع الصيّادون إلى المرفأ. ويعود عمّال الحقول والمسافرون والرُعاة مذعورين إلى مآويهم. وتتمتِم شفاه هؤلاء جميعاً صلاة غريبة سيّدة أمبوتو! سيّدة أمبوتو!

من هي تلك السيّدة؟ إنها الروح الهائمة لامرأة محرومة من الإيمان والضمير. لقد ضحّت على مذبح طموحها بحبها كزوجة، وكابنة أيضاً، وحتى بأملها الأخير في الخلاص. ثم ارتكبت الجريمة الأشنع والأعظم، إذ أزهقت روحها بأن رمت نفسها إلى هاوية سحيقة. وفي جزاء عادل لآثامها، وجدت نفسها محكومة بالعويل والطواف إلى الأبد فوق هضاب «أمبوتو». ويُنظر إلى ظهورها دوماً باعتباره نذيراً بكوارث كبرى. إذ تُرسم آثار قدميها بالدم والدموع. وكالطيور المفترسة التي تجتذبها رائحة الدم، تُنبئ سيدة «أمبوتو» باقتراب ساعة الشقاء. وتترك طرائدها أسيرة الدموع والنحيب.

في المقابل، يخيّم ضباب أبيض مُحبّب فوق هضاب «موريموندي». وسرعان ما يتبدّد مثل بخار ناعم. إذا تنبّه شخص ما لظهور ذلك الضباب، فسرعان ما يمتلئ قلبه بالحبور. ويُحيّي السيّدة التي تأتي لتُبشر بأنها ستساعد على تجاوز المصاعب

Twitter: @ketab_n

الراهنة. لقد أتت السيّدة الرائعة! لقد أتت السيّدة الرائعة! هكذا تمتدح الشفاه تلك العذراء التي ضَحّت بمشاعرها وسعادتها وحياتها، من أجل والدها العجوز. وأنهت أيامها الأخيرة في صلوات متّصلة فوق جبال «موريموندي».

تسبق روح الفتاة الفخورة ظهور غيوم سود تُنذر بالكوارث. ويعلن ظهور الغمام الأبيض كالروح النقية لتلك العذراء، الأمل والسلام.

تجسّد سيدة «أمبوتو» الطموح والجحود والجريمة. وترتع روحها في حمأة مقيتة. وتُقابل باللعنات. وتُمثّل روح سيدة «موريموندي» نكران الذات والفضيلة والبراءة. وتعيش وسط تبريكات دائمة من قلوب الناس».

لا شك في أن ذلك كله مستغرب وخيالي. ولكنه شَكّل بالنسبة إلى عشرين جيلاً من الباسكيين، دروساً أخلاقية عظيمة، مكتوبة بالغيوم فوق الهضاب الشاهقة في «أمبوتو» و«موريموندي». وينطبق الوصف عينه على التقاليد المحفوظة، التي تحتوي دوماً على مثال أخلاقي أو تعلّق ببيوت الأسلاف أو شغف بجبال الباسك. وبمعنى آخر، إنها تلاقي ثلاث فضائل إنسانية أساسية: حب الرب والعائلة والوطن. وقبل عشرين قرناً، أُعجب الرومان بتوافر تلك الفضائل لدى سكان الباسك. ولقد

Twitter: @ketab_n

ميّزت تلك الفضائل العِرق الباسكي على مرّ العصور. وستظل شعلتها متّقدة لدى الأجيال الآتية، على الرغم من أنها فقدت الكثير من حماسة الآباء لها، لسوء الحظ.

ويصعب الشك في أن تلك الخرافات الشعبية لعبت دوراً كبيراً في الحفاظ على الخصائص المميّزة لشعب الباسك الذي يتفرّد باستمرارية عزّت على كثير من الأعراق القديمة. ولقد حفِظت لغته وتقاليده ومعتقداته وروحه التي تألقت لتُمَيّز الباسكيين بين شعوب إمبراطوريات غنيّة. واستمر شعب الباسك. وذَوَتْ تلك الإمبراطوريات، واختفى ذكرها من ذاكرة الشعوب.

لندندن الآن أغنية هنيبعل التي أنشدها الأجداد قبل ثلاثين قرناً. فلنغن أنشودة ليكوفيدس التي ظهرت في حقبة الإمبراطور الروماني أغسطس أوكتافيوس، أو أغنية ألتابيسكار التي ترجع إلى أيام شارلمان.

يستطيع الرعاة في أيامنا أن يفهموا تلك الأناشيد وكأنها كتبت لهم. في المقابل، ما الذي يُفهم اليوم من موروثات مثل مُغنّاة سكالدوس، قصيدة نيبلنغ، وأغنيات أوسيان والترانيم الأرمنية؟ لا يتواصل مع هذا الإرث سوى حفنة ممن كرّسوا أعمارهم لدراسة اللغات المنقرضة. ويدلّ ذلك على أن الموروث

Twitter: @ketab_n

الباسكي حفظ اللغة بمقدار ما حافظ على الروح التي ميّزت ذلك العِرق في حينه أيضاً، مما أدى إلى استمراريتها. ويعيش شعب الباسك راهناً ويحكم على الأشياء بالروح نفسها التي سادت في أيام عزّه.

فبأي وسيلة أخرى سوى التقاليد المروية، نستطيع معرفة أسماء القادة الأبطال الذين قادوا المحاربين إلى أمجاد هزّت قلب روما القديمة، مثل ليكوفيدس وأوشاينس ولارتونس؟ ومن خلال أي تاريخ حُفِظَت سِيَر أبطال مجيدين من وزن هيرنيو وغوروتزيتا وأورو–فيوك وبيتزيد وغيرهم؟ أي نص أفضل من قصيدة «كانتو أوف ألوس» لينقل مشاعر الرهبة والحزن التي سادت أثناء جنازة غويلا؟

إذن، من المستطاع القول عن حق، بأن الأمة التي تجمع العدد الأكبر من التقاليد والأناشيد القصصية والخرافات الشعبية، تملك التاريخ الأكثر اكتمالاً.

وللسبب عينه، نال هذا الموروث حظّه من المتابعة، بدأب وكفاءة، في ألمانيا. وكذلك اتّصلت دراسته في فرنسا مع الروح الوطنية.

لقد نال جمع موروث الخرافات اهتمام أمتين عظيمتين (أي فرنسا وألمانيا) تحتلان مرتبة متقدمة في الحركة الأدبية عالمياً، كما

Twitter: @ketab_n

تملكان تواريخ متعددة وجميلة كُتبت بأيدي نخب ثقافية لها باع طويل في النقد الفلسفي أيضاً. فكيف تكون حظوة ذلك الموروث عينه عند شعب الباسك، خاصة أنه لا يملك مدوّنات متسلسلة زمنياً ولا سجلات ولا وثائق مكتوبة ولا أياً من العناصر اللازمة لكتابة التاريخ بدقة.

في حال كتلك، لا يبقى للتاريخ سوى طريق وحيد: ذاكرة الشعب. يتوجب الإسراع في جمع المتناثر. ولربما يأتي اليوم الذي يظهر فيه عبقري يستطيع تجميع الموروث كله. وفي حينه، يصل عمل، كالذي شرعت في إطلاع القرّاء باللغة الإنجليزية عليه، إلى الاكتمال. ولا يقتصر ما جمعته على موروث الباسك من الخرافات، بل يتضمن موروثاً مُشابهاً من مقاطعات إسبانية أخرى. لنسرع في ذلك العمل إلى الحدّ الأقصى، إذ يبدو أن الآلهة شرعت في الرحيل. فبأثر من سوء حظ لا يُمكن رَدّه، يعاني هذا الشعب في أعماقه، من تحوّل عميق ومضن.

إذ تتصارع المساواة والروح العملية اللتان تسودان العصور الحديثة، مع الخرافات التي عاشها الشعب طويلاً ومع أحاسيسه السامية وتقاليده الأبوية. ويعاني الشعب إذ يعي ندرة مخزونه من المعتقدات، من إحساس مُحزن بالمهانة لأنه بات يستشعر فجاجته وجهله. ولعله من المُحزن القول إن أبسط المزارعين صار يحسّ

Twitter: @ketab_n

بالخجل راهناً عندما يروي تلك الحكايات التي استمع إليها ذات مرّة بحماسة عارمة وبتصديق مُضمَر. وإذا طلب منه أحدهم أن يروي ما يحفظه من حكايات، فإنه ينظر إليه بارتياب خشية أن تكون لدى السائل نية السخرية من سذاجة ما سيُروى.

في المقابل، لا تعني الحماسة لمرويات الماضي إنكار الفوائد العارمة التي حازتها الإنسانية من المعرفة والتقدّم المعاصرين. ولكن، عند هذه النقطة بالذات، لنتوحد للحظة مع أفكار شعب الباسك. ولنسأل أنفسنا بأي أفكار ومشاعر يمكننا أن نملأ تلك المساحة من تاريخه، إن مزّقنا المعتقدات والتقاليد والأفكار والعادات وازدريناها، خاصة أنها ساهمت في ازدهار الشعب على مدى عشرين قرناً، وأعطته طابعه العرقي المميّز. وبقول آخر، يوفّر موروث شعب الباسك ذلك الانسجام الساحر الذي يوحّد الغرائز الأشد مسالمة مع البسالة البطولية عند الخطر، ويوائم بين الانقياد التلقائي للسلطة والروح المتوثّبة للحرية، ويقيم الانسجام بين البساطة والتشوّق للعظمة التي يتضمنها ذلك الموروث عينه.

ويصعب عدم الإقرار بحقيقة أن الباسكيين، خاصة الأجيال الصاعدة منهم، ما عادوا مشدودين إلى المنزل العائلي ولا إلى الموطن، على غرار ما كانت عليه الأجيال السابقة. ولم تعد تقاليد

Twitter: @ketab_n

الأجداد ولا مروياتهم لتشفي غليل حاضرهم. ولذا، بات من الأهمية بمكان الإسراع في جمع تلك الخرافات من جيل يختفي بسرعة. وإذا اخترنا الانتظار بديلاً، فلربما فقدنا آخر آثار ذلك الموروث. لقد فُقِد الكثير منه بالفعل، وتلاشى معه الكثير من كنوز تاريخ بلدنا الحبيب.

ولأنه ليس ثمة شفاء لهذا الداء، فلنُعالج أمره بالمسارعة إلى جمع شتات الحكايات وبقاياها. ولنحفظها بجلال لائق، لأنها تمثّل آثار عظمة الأجداد وفضائلهم ومعتقداتهم. فمن الحقائق المسلّم بها أن الشعوب الجبلية تميل إلى الاعتقاد بالغيبي والسحري. ربما يأتي ذلك من المعايشة اليومية لطبيعة تعبّر عن نفسها بجمال وعظمة، مما يحفّز خيال قاطنيها البسطاء للانطلاق صوب السحري. وينطبق هذا الوصف على المفازات الجبلية القاسية لمجرى نهر «الراين» حيث تنتثر قلاع الإقطاعيين، وجبال اسكتلندا وبحيراتها، والصخور الجرداء التي تظهر في جزر «إبرايد» الاسكتلندية أيضاً، والممرات الكبيرة والقاسية لأرض إرن[1] الخضراء. تلهج الألسن في بعض تلك المناطق بقصص عن الأشباح أو الأقزام الخرافية التي تحرس كنوزاً دفينة في باطن الأرض. ويروى بعضها الآخر حكايات عن سيدات

(1) في الأساطير الآيرلندية هو اسم آيرلندا الذي منحتها لها إحدى الآلهة (م).

Twitter: @ketab_n

بيض يركبن جياداً مطهمة. وتروي بعض الشفاه خرافة عن «الباريّ» الذي يُفترض أنه تحدّر من نسل إبليس، وعن سراب كائن المستنقعات المتوهّج. وتتشارك تلك المناطق كلها بأنها تعتقد بوجود أعداد لا تحصى من الكائنات الغامضة، وتُشاهد رقصات تلك الكائنات، وتُسمع صرخاتها، وتُرى ألعابها، وتظهر مواكب عرباتها الجوية. ولا تحدث تلك المشهديات إلا في ضوء قمر شاحب، أو في الضباب، أو عندما يزبد شلال أو يزمجر إعصار أو في مجرى جبلي لنهر متدفق. وكأنما تؤلف عناصر الطبيعة ستارة شفيفة تُظلّل أفاعيل كائنات السحر الغامضة.

وعندما يعبر زائر مستنير عقلانياً تلك المناطق المضيافة بطبيعتها، فسيحظى بفرصة للاستماع إلى قصص شتى عن تلك الكائنات. وإذ يستقبل كفرد من العائلة، يتوجب عليه أن ينصت باهتمام إلى ما يروى له.

وأما إذا أبدى ملاحظة تحمل ظلاً من الشك، فسينهض الجمع ضده فورياً، ليس بدافع من سوء الضيافة بل لأن تشكيكه يحمل لهم الكثير من المهانة. إذ يُفهم كانتقاصٍ من قيمة تلك المناطق التي تعتبر نفسها مسرحاً للكائنات السحرية الغامضة. صحيح أنه من غير المستطاع إثبات الوجود المادي لكائنات السحر والخرافة، فذلك من صلب طبيعتها. في المقابل، ينتظم

Twitter: @ketab_n

عيش هؤلاء الناس وحياتهم الرتيبة، بأثر من التدخّل المستمر لتلك الكائنات. ولإقناع الزائر بصحة المرويّات، يتبرع راعٍ مُسن بالقول إنه استيقظ ذات صباح مستشعراً القُبَل الخفيفة لكائن مستنقعات أبيض متوهّج، حمله من سريره القشّ في كوخه الجبلي ليوصله إلى أجمة خضراء. ثمّ راقَصَه هناك. ودار بجسده دورات لم تخل من الخشونة. ويُضيف العجوز أنه يتذكر رؤية السيّدة البيضاء في شبابه، وقد نَزَلَت من قلعة جبلية مجاورة. ثم عبرت الغابة، حاملة صقراً على معصمها. وحفّ بها موكب من فرسان وحملة أبواق. وركضت أمام مركبتها كلاب صيد مدرّبة.

وبعد تلك التوكيدات الحاسمة، تأتي قصص الزوجة العجوز. وتروي أنها شاهدت بأم عينيها عفريتاً صغيراً عمد إلى نثر الملح على الأرض، وتقليب الأوعية والأباريق. وبلغ من الشيطنة حدّ أنه ربط سجادة بالية إلى ذيل قطة الدار المُحبّبة.

وبالنسبة إليهم، يُفترض أن تؤدي تلك الشواهد غير القابلة للدحض، إلى أن يُسلّم الزائر بحقيقة وجود الأشباح والبارِيّ والسيدات البيض وكائن المستنقعات المتوهّج. وعندها يستعيد الزائر حسن ظن مضيفه به.

وأميل للقول إنه من الأفضل أن نترك هؤلاء القوم الطيبين

Twitter: @ketab_n

لكي يحيوا بسلام مع معتقداتهم الغيبية، التي لا تُؤذي أحداً. وليُعط الزمن فرصة أن يكشف الحقائق لهم. وأُفضّل ذلك على أن نرسم أنفسنا على هيئة مصلحين، إذ نحاول اقتلاع تلك المعتقدات البسيطة من أذهانهم. وأكثر من ذلك، تدّل التجربة إلى أن الشعوب التي تدفعها بساطتها للإيمان بهذه الخرافات، تكون أكثر كرماً وفضيلةً ومُسالمةً وصِدقاً. وكذلك تتقبّل النهوض بالواجبات الدينية بسهولة. وتحترم القوانين التي تسنّها الحكومات. والحق أن تلك المعتقدات البسيطة تمهّد لقبول معتقدات أخرى أكثر أهمية وأعلى شأناً.

وإني لأذهب خطوة أبعد من ذلك للسؤال عن الكيفية التي يمضون فيها ليالي الشتاء الطويلة، إن حرموا من تلك الحكايات الساحرة التي يروونها عند اجتماعهم بسلام حول نار الموقد في ظل علاقات ودودة؟ أليست زاد خيالهم وملاذهم بعد يوم من العمل الشاق في الحقول؟

لنتذكر أنهم ينعمون بالدعة والسعادة في أثناء استماعهم إلى تلك القصص والحكايات الخرافية. فلماذا نسمّم بشكوكنا السعادة التي يهنأ بها أولئك الناس؟ تضمّ الأراضي التي تشكل مقاطعات الباسك، جبالاً كتلك التي تتوافر في اسكتلندا، وتلالاً تشبه ما تحتويه آيرلندا، وشواطئ قاحلة وقاسية كتلك التي

Twitter: @ketab_n

تضمها جزر «إبرايد» الاسكتلندية. وتُشكّل تلك المقاطعات موطناً لشعب يحوز خيالاً جامحاً، إذ خلق كائنات سحرية مثل الـ«لاميا» الذين يقطنون السواحل المضطربة، والـ «باسا-خوانا»[1] (أو الـ«خوانا») الذين يعيشون في الحقول المترامية، والـ«ماليغاري» من قاطني الغابات السخيّة، والـ«سورغوينا» الذين يملأون السهوب الموحشة والمفازات التي شقّتها السيول المنثالة من الجبال.

وأرى أنه من البديهي أن يهتم الناس في إنجلترا بالحكايات والخرافات التي تأتيهم من شعب متفرّد، يحوز لغة مميّزة وأصيلة وساحرة. ويتغذى الخيال الخلّاق لذلك الشعب من شغفه بجباله، وإيمانه العميق، وتقاليده الأبوية، وتقدّمه غير العادي، وفضائله البيّنة، وقدرته المذهلة على تدبير شؤونه وإدارتها. وأعتقد أن الإنجليز اشتهروا باستعدادهم للاعتراف بفضائل الأمم الأخرى وكبريائها، مما يجعلهم يهتمون بالحكايات الخرافية الشعبية للباسك.

(1) «باسا-خوانا»: تعني حرفياً سيد الغابات. ويصوره الخيال الأسطوري لشعب الباسك كوحش مريع له هيئة إنسان، لكنه مكسو بالشعر، وله أظافر طويلة وقوية كتلك التي للدببة البرية. ويفترض أنه يعيش في أعمق نقطة من الغابة. ويظهر أحياناً عند مداخل الكهوف ومنابع الأنهار. وأورد م. ميتشل تفاصيل مذهلة الغرابة عن الاعتقادات الشعبية حول هذا الوحش في كتابه «بلاد الباسك» (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

أكويلار[1]
1

تُشكّل الأرض الممتدة بين بلدتي «زوغارامـوردي» و«إيشالار»[2]، ممراً جبلياً وعراً يكتظ بالغابات وتعبره الجداول وتخترقه الأودية. وعلى هذه الأرض، يرتفع جبل «أكويلار» وحيداً قائماً، تنمو فيه الأشجار الدغلية بأشواكها الحادة وتحيط به الصخور والشلالات.

يجذب موقع الجبل وشكله المخروطي علماء الجيولوجيا ممن يرتادون المناطق الوعرة، إذ يحوز مظهراً شديد الفرادة. ويُلاحَظ أن الجبال التي تجاوره، وهي امتداد لهضاب الـ«بيرينيه»، تلاقي الأفق بقمم متعرجة تارة، ويغمر رؤوسها اللون الأخضر تارة أخرى. وتشمخ باستقامة حيناً، وتبدو ناعمة أحياناً. وفي بعض الأحيان تبدو هذه القمم سهولاً ممتدة وهي التي تشكّل جبل «أكويلار» وتفصله لجهة الشكل عن بقية السلاسل الجبلية المحيطة به.

ويقال إن الروح الحارس «أريال»، الذي يجلّه سكان خليج

(1) أكويلار: اسم يتألف من قسمين، «لارا» تعني التيس، و«أكويرا» وتعني أرض المرعى. وبذا، تعني كلمة «أكويلار» مرعى التيس ومن المعلوم أن الساحرات يعتبرن هذا الحيوان رمزاً للشيطان (المؤلفة).

(2) بلدتان تقعان اليوم في إقليم «نافار» في شمال إسبانيا الذي يتمتع بالحكم الذاتي، وقد اشتهرت الأولى اريخياً بوصفها المكان الذي جرت فيه محاكمات الساحرات الشهيرة وحرقهن (م).

Twitter: @ketab_n

«بيسكاي»[1] على المحيط الأطلسي، مدّ ذراعه الجبارة يوماً واقتلع جبل «أكويلار» من جذوره، وأبعده عن رفاقه الجبال. والحق إنه جبل ملعون، وإن لم تصدّق ذلك فتأمل فحسب نباتات العليق البري التي تكسو سفوحه الشاسعة والتي ليس لها ذلك اللون الأخضر الملكي الذي يميز أشجار البلوط الوارفة، ولا اللون المائل للبياض الذي ترفل به أشجار الحور. ويبدو أقل كثيراً من اللون الأخضر اللامع لشجر الشوح. ولا يقترب حتى من لون أشجار الكرز والكمثرى والجوز، والتي تحتضن أزهاراً بيضاً عطرة تتلألأ على بتلاتها قطرات الندى كأنها الألماس. على عكس تلك الألوان الزاهية، تصطبغ نباتات جبل «أكويلار» بلون قاتم حزين وجنائزي

يشبه لون قمة جبل ليتوانيا الهائلة. ويُذكّر بأشجار السّدر التي تنمو في الشقوق الصخرية لتلال «البتراء» العربية. ويلوح في لونه ظلّ جنائزي يُحزِن النفس، ويتكفل بلجم خيال شاعر يشطح في تأمل العطايا الفاخرة للطبيعة في الغابات.

فما سرّ هذا التناقض؟ لماذا ينتصب هذا الظل القاتم وسط طبيعة غنّاء رائعة الجمال؟ أيكون السبب أن كل ما يلمسه روح الشر يحمل

(1) أحد أقاليم بلاد الباسك التابع اليوم لإسبانيا ولأهله لهجة خاصة تختلف عن بقية الباسكيين (م).

Twitter: @ketab_n

معه ختم النقمة الذي يبدّل جماله السابق بأشكال مقززة منفّرة؟

وهكذا، أَلفى «أكويلار» نفسه في حال محزنة. يزور قممه أمير الظلام. وتتردّد في جنباته الأغاني الشيطانية التي تمجّد ذلك الأمير. ولقد سمع كثيرون، في رعب، تلك الأناشيد التي تحطّم جلال الصمت في ظلمة الليل. وشاهدت أعين بعضهم أعمدة دخان ترتفع عالياً. وشمّت أنوفهم روائح كريهة تفوح من سفوح ذلك الجبل الملعون. واستنتجوا أن ثمة مذابح جماعية يرتكبها عابدو روح الشر، وتُقدّم فيها قرابين غامضة. وأياً كان الأمر، فما هي تلك الأرواح؟ ومن أين أتت لتقيم حفلاتها الليلية الماجنة؟

يكتفي البسطاء من قاطني الجبل بهزّ الكتفين، عند مواجهة تلك الأسئلة، مع ترديد كلمة «إيز تاكويت» أي «لست أدري».

وفجأة، يظهر تفسير تتناقله الألسن. وينتشر بين الناس. ويشير الى أن طفلاً استطاع أن يعرف ما يدور في جنبات الجبل الملعون.

اسمع كيف تروي الحكايات المتوارثة ما جرى.

كان إزار في السابعة ولانوا في التاسعة، وقد درج هذان الشقيقان اليتيمان على التنقّل في الجبل، كأنهما شاعران جوّالان. ودأبا على تحصيل رزقهما من إنشاد القصائد القصصية والأغاني الوطنية، بصوتهما الطفولي الرفيع، ليحظيا ببيت ليلة وبوجبة صغيرة ساخنة. وألِف أهالي الجبل هذين الطفلين. وأحبوهما

Twitter: @ketab_n

نظراً لحالهما المحزنة، وكذلك لسعيهما المُشَرّف والمبتكر في كسب العيش. وثمة فارق ضئيل بين الطفلين. فقد كان إزار متألق الوسامة كحجر اليشب الكريم، إذ ينسدل شعره الطويل على كتفيه في جدائل ذهبية بلون الذرة الصفراء، وتكسو عينيه زرقة بلون السماء، لكنهما تشعان بنظرات عذبة يصعب مقاومة جاذبيتها، وتطفو على شفتيه حمرة الرُمّان البري، وتحوم فوقهما ابتسامة ناعمة، كنسيم تنهيدة.

وعندما يبتسم ثغره، تظهر غمّازتان على خدّيه المتوردين. كان إزار الأكثر صبراً ووداعةً ووسامةً بين الشقيقين. ويمتلك صوته صفاءً في النغمات. ولذا، حاز محبة أهل الجبل، وآثروه على أخيه.

في المقابل، نال لانوا من الوسامة حظاً كبيراً، لكن في شكل آخر. فقد منحته الطبيعة مرونة الجسد، مع أطراف قوية. وتشعّ عيناه السوداوان بنظرات مشبعة بالكبرياء (بل أحياناً بالتكبّر) والجرأة. وتدلّ الطريقة التي يزمّ بها شفته العليا على طبيعته العاطفية وقوة شكيمته. ويميل شعره إلى السواد، مع لمعة زرقاء كتلك التي تخالط ريش الغراب. وتعمل رموشه الطويلة على تخفيف حدّة نظراته القوية كالنسر. ولا يعني ذلك أن لانوا لم يكن فتى صالحاً، فقد كان يحب أخاه حباً جماً، وإن عامله بقسوة في بعض الأحيان.

Twitter: @ketab_n

وفي يوم حزين من نوفمبر، سار الصبيان صوب بلدة «أرانـاز». وبصعوبة شرعا في عبور الجبال الملتفة بالضباب والمكسوة بالثلوج. ووهنت قوى إزار من تسلق المرتفعات. ولم يجرؤ المسكين على طلب معونة أخيه. وكذلك لم يكن لانوا معتاداً على منح المعونة من تلقاء ذاته، لكنه تمنى لو أن أخاه يطلب مساعدته، ليقدمها له برضا.

وأخذ يحدّث نفسه قائلاً: «يا للصبي المسكين... لا يريد أن يتواضع ليطلب مني المساعدة. يخطئ إذا ظنّ أنني سأمنحه العون من تلقاء ذاتي...». وانغمس في هذا الحوار الداخلي، حتى تسارعت خطواته، واتسعت المسافة التي تفصله عن إزار. وحاول الأخير أن يقترب من أخيه. فأخذ يسير بخطى واسعة. فلم تستطع رجلاه الضعيفتان تحمّل هذا الجهد. فقرّر البقاء على مسافة من أخيه، بمقدار ما يسمع صوت خطواته.

وفجأة، عصفت ريح حاملة معها ثلجاً ثقيلاً قذفت به المضيق الجبلي الذي يعبره الشقيقان وأجبرت لانوا على إبطاء سيره، فاستطاع إزار أن يُدركه.

وسأل الصغير أخاه بحياء: «ماذا سنفعل الآن؟».

فأجاب لانوا بخشونة: «عفواً، مـاذا تعني بـ (نفعل)، أيها الكسول. سأستمر في السير ما إن ينجلي الضباب قليلاً. وحدهم الأطفال والنسوة يقبعون في المنازل هرباً من البرد. أما

Twitter: @ketab_n

أنا فرجل لا أخشى البرد». وأردف ذلك بأن خلع قبعته معرضاً شعره المجعد لهبات رياح الشمال الباردة.

فصرخ إزار: «ما الذي تفعله يا أخي؟». ونهض عن الصخرة الوعرة التي جلس عليها. وفرد طرف طاقيته على رأس أخيه. وأضاف: «دعني أحمك من البرد بمئزري الكابّوزي[1].أعلم أنك أقوى مني. ويجب عليك، لهذا السبب بالذات، أن تحمي نفسك، كي تتمكن من مساعدتي».

فرد لانوا بقسوة: «إليك عني». ودفع أخاه الضعيف بيده فسقط الأخير أرضاً. وتابع لانوا سيره بعزم، حاسر الرأس، وسط الثلوج المتراكمة.

لم ينبس إزار ببنت شفة. ولم يصرخ حتى عندما اصطدم رأسه بحجر، إثر سقوطه أرضاً. بل نهض ثانية بنية معاودة فعله الخَيّر بمدّ الغطاء على رأس أخيه. وبأسف عميق، لاحظ أن أخاه اختفى عن ناظريه. ركض في الاتجاهات كلها. ونادى على أخيه بصوت عالٍ. ولكن الضباب الكثيف حال دون عثوره عليه. وأخذ جسمه الضعيف يرتجف من شدّة البرد. وأحسّ الطفل المسكين أنه يدنو من الموت. وخلال الضباب، وقعت عيناه على شجرة قريبة ذات جذع مجوّف فاتخذها ملاذاً. اقترب الظلام

(1) كابّوزي: مئزر فضفاض سميك، كالذي يرتديه الكرادلة، مزوّد بغطاء للرأس (م).

Twitter: @ketab_n

بسرعة. وأخذ ينشر غطاءه القاتم على تلك الأرجاء الموحشة. وشرع الضباب في التكاثف بدل التبدّد، وغمر الأشجار، وانثال كشلال ماء فوق الأودية والمستنقعات.

ومن مكمنه في جوف الشجرة، بدت أرض الممر الجبلي غارقة في الضباب الأبيض الذي تخفّ كثافته في بعض الأمكنة فتبدو كالبحيرات، وتتكاثف أستاره في بعضها الآخر، فترتفع وتنخفض كأنها أمواج بحر متلاطم تضرب صخور الشاطئ. وفي ذلك المحيط الضبابي، ظهرت بعض النقاط السود التي تشكّلها قمم بعض المرتفعات، وران صمتٌ عميق مهيب. وزاد الليل من عتمته بسرعة هائلة.

وعلى علو من الضباب، ظهرت هالة صفراء باهتة تحيط بالقمر الذي يغلب عليه اللون الرمادي في تلك الفترة من السنة، خاصة عندما يمتلئ الجو بالغيوم والضباب.

ومن هذا المشهد، أدرك إزار أنه على قمة جبل. فخرج من مكمنه في قلب الشجرة، كي يتعرّف ما يحيط به. ولاحظ أن الشجرة التي حمته تنتصب في سهل صغير تحيط بها أشجار برية شوكية كثيفة. وبدت تلك الأشجار متداخلة متراصفة. ولم يستطع أن يعثر على ثغرة ولا على ممر لهبوط إلى الوادي. كيف يستطيع طفل تائه أن يخرج من هذه البقعة الوعرة؟ لم يجد إزار

Twitter: @ketab_n

في نفسه إجابة عن ذلك السؤال. وأحسّ بالجوع والعطش. وشرع في البكاء والعويل، بأثر من الخوف والألم.

وسرعان ما أدرك أن لا جدوى مما يفعله. وعاد إلى الشجرة التي أكل الدود جوفها، عازماً على البقاء ليلته في حضنها المضياف. وأوكل أمر روحه إلى الرب. وفي غمرة حزنه، تذكّر أمه الحنون. وصلى إلى ربه وتضرع إليه أن يُنجي أخاه من أي شر قد يلم به. وبعدها، اضطجع. وكوّر جسده محاولاً اتقاء البرد بمعطفه المهلهل. وربض في مكمنه. وسرعان ما هبط نوم بريء على عينيه.

عندما أوكل إزار أمره بصدق إلى القوي الرحيم، كانت أبواب السماء مشرعة. وسرعان ما هبط ملاكٌ جميلٌ ككل الملائكة. وحطّ على أغصان الشجرة. وفَردَ جناحيه الأبيضين. وحرس نوم الصغير بمحبة. فنام إزار بسلام وهناءة، بحراسة هذا الملاك العطوف. وبعد وقت ليس بقصير، استيقظ فجأة على صرخة متواصلة، ملأت جنبات الجبل. وبحذر، أخرج رأسه من مكمنه. وسرعان ما رأى مشهداً غير مفهوم. بدا السهل مغموراً بضوء القمر الشاحب، ما أعطى كل شيء فيه شكلاً غرائبياً.

في غمرة عالم الليل الذي سدّ الأفق، بدت الظلال أشدّ سواداً إذ تحوّلت من الرمادي الكالح إلى الأسود الكثيف. ومن

Twitter: @ketab_n

أربع نقاط في الأفق، انسدلت أربعة خطوط طويلة تحمل ظلالاً غرائبية. وتصاعدت منها صرخات لا تصدر عن مخلوقات أرضية. سارت الخطوط بسرعة رهيبة، لتتلاقى في نقطة معينة. ولم تكن تلك النقطة سوى السهل الذي ورد ذِكره. ويصعب على الكلمات وصف الموكب الذي حفّ بتلك الخطوط. أدخل أحدهم بين ركبتيه الخاليتين من اللحم، هيكلاً عظمياً لوحش «الماموث» الضخم. واعتلى الآخر ظهر بومة هائلة الحجم لها هيئة وحشية. وطار آخرون بمكانس قش مسحورة.

وامتطى بعضهم ظهور حيّات مجنّحة ضخمة، لها أذيال طويلة وأعين برّاقة. واتصلت تلك الظلال المخيفة بعضها ببعض، فصارت الخطوط الأربعة سلسلة لا نهاية لها. وحامت تلك السلسلة بكائناتها الغرائبية على علو مئة قدم من أرض السهل. وحيّا كل منها الآخر بصرخات مرعبة، وقهقهات مجلجلة، وأصوات تصمّ الآذان وحمحمات بشعة. وبعد أن حوّمت باضطراب هائل، شرعت في الهبوط تدريجاً إلى الأرض.

تفاقم رعب إزار عندما لاحظ أن تلك الكائنات لها وجوه نسوة عجائز. وجوه قاتمة مُجعّدة منفّرة. وبدت أجسادهن شنيعة مثيرة للقرف وبعثن رعباً هائلاً في نفس الصبيّ بشعورهن القصيرة الملبّدة وأذرعهن الخالية من اللحم.

Twitter: @ketab_n

تملّك قلب إزار رعبٌ لا حدّ له، من تلك المشاهد المروّعة التي أُرغم على مشاهدتها. وتزايد هلعه حين لاحظ أنهن شرعن في أداء رقصة غرائبية. فلقد شبكن أيديهن وشكّلن دائرة كبيرة حول الشجرة التي اختبأ إزار في جوفها.

ودُهش لأن جمعهن تناسب مع حجم السهل الذي انتصبت فيه الشجرة، فما زاد عن تلك المساحة ولا نقص عنها أيضاً. وسرعان ما تحقّق خوفه، إذ لم يتأخرن في الشروع في الرقص. في البداية، كانت خطواتهن بطيئة، ومتناسقة، إلى درجة أن أقدامهن ترتفع وتهبط معاً. وشرعن في تسريع إيقاعهن. وصار دورانهن أكثر سرعة وعنفاً، فبِتن كالزوبعة. وصار النظر إليهن يبعث على الدوار. وصنعن مشهداً غرائبياً من مزيج الرقص والقفز والأشكال المنفّرة والصرخات المدوّية. ولم يستطع إزار تحمّل كل هذا الصخب، فانهار فاقد الوعي.

وعندما استعاد وعيه، كان القمر قد اختفى. وصار الليل بسواد الكحل. وران صمت المقابر على السهل. وأخرج إزار رأسه من مكمنه ببطء وحذر، متمنياً أن يجد تلك العجائز قد اختفين. لكنهن كنّ هناك. وبرعب، رأى أيضاً أن حركاتهن باتت أكثر غرائبية من ذي قبل، وقد انتظمن في دائرة تلاصقت فيها أجسادهن، وتحلّقن حول عرش عاجي، جلس فوقه تيس

Twitter: @ketab_n

ضخم. وانبعثت خيوط ضياء واهنة من ذلك العرش، فكانت الشيء الوحيد المنير وسط تلك الظلمة الهائلة.

واقتربت النسوة بالتتابع من ذلك العرش. وقبّلن بالتتالي، وبتوقير ما بعده توقير، الحافر المُشعر للتيس. وبعد اختتام هذا الطقس، هزّ الماعز رأسه، فشرعت النسوة برواية ما فَعلن، كل بدورها أيضاً.

وتملّك الهلع قلب إزار إذ أُرغِم على الاستماع للأفعال المشينة التي روتها أولئك النسوة والتي تضمنت قتلاً وتشويهاً لأطفال وتدنيساً لمقابر وغيرها. وكاد أن يغمى عليه ثانية، لولا أن سمع صوتاً عذباً يأتيه من أعلى الشجرة، منادياً إياه باسمه. فنهض مندهشاً. ورفع عينيه إلى مصدر ذلك الصوت. وشاهد على الغصن رجلاً تحيط به هالة سماوية، يرسل إليه نظرات حانية رقيقة.

همس الرجل: «اسمع. لا تخف. لقد جئت لحراستك وحمايتك».

أصاخ إزار السمع لأقوال النسوة. وسمع أشياء وأشياء.

قالت إحدى الساحرات بصوت يشبه فحيح الأفعى: «لقد أطاعت أخواتي كلّهن أوامرك، ليس بينهن من لم ترسل لك يا مليكي، بعض الضحايا. لكني أتحداهن جميعاً أن يفعلن ما أقدر عليه».

Twitter: @ketab_n

همهم التيس قائلاً: «تكلمي يا ابنتي، أعلم أنكِ من أخلص أتباعي».

ومضت الساحرة قائلة: «تعلم يا سيدي أن ذلك الدوق الذي يحكم «فـ...» وزوجته من الأتقياء الورعين الذين يتمتعون بإيمان حقيقي. وتعلم أيضاً أن لديهما ابنة كالشمس البهيّة، وقد ربياها لتكون نموذجاً يحتذى. فلكم سعدت بقتل جسدها ببطء، بوصة إثر بوصة. وذبلت تلك الوردة في ميعة صباها ونضارتها. وزَرَعت اليأس في قلب والديها، ما يجعلهما لقمة سائغة لغوايتك. ألا تكون ضربة معلم أن يقتلا معاً، وبعد شهرين أو ثلاثة أشهر من العذاب الدنيء أيضاً؟ ما قولك لو أنهما أزهقا روحيهما بأيديهما؟».

وعلت وجه التيس الشرير تكشيرة رهيبة، من المؤكد أنها كانت ابتسامة رضا. وقدحت عيناه نيراناً يستحيل وصفها.

وقال إسّ الشر: «إذا فعلت ذلك، صرت الأحب إليّ بين بناتي».

«إذن، أعطني مكافأتي يا سيدي. لقد بدأ عذاب الأميرة منذ أسبوع. ولم يستطع أحد اكتشاف سبب شكواها أو فعل شيء لعلاجها».

«ألا تخشين أن يتمكن أحد من اكتشاف الأمر؟».

Twitter: @ketab_n

«كلا يا سيدي. لقد جعلت اللعنة التي حلّت بها على شكل ضفدعة ضخمة تعيش في الخفاء تحت تمثال مكسور مهجور مرمي في ركن قصيّ من حديقة الدوق. وطالما بقيت الضفدعة، تفاقم المرض حتى يزهق حياة الأميرة».

«أخبارك تسرني يا بازوتي. أريد منك تقارير متتالية ودقيقة عما يحدث لها. وأعطيك شكري. وأسمح لك بالمجيء السبت المقبل». ثم هزّ ملك الشرّ رأسه. وسُمع صوت عاصفة عاتية. واختفى العرش والجالس عليه. وتجلببت كل الأشياء بالغموض.

بعدها، سمع إزار صوت الساحرات وهن يرتفعن ويطِرن ممتطيات الرياح. وشرع ضوء القمر الشاحب في الظهور لينير الظلال العجيبة التي تراجعت من حيث أتت. واختفت بين الغيوم السود الكثيفة.

ونظر إزار إلى الأغصان التي رأى فيها الشاب الذي دعاه إلى عدم الخوف. وعندها، خاطبه الملاك قائلاً: «قُمْ بمهمتك كما نهضتُ بمهمتي». وبسط الملاك جناحيه. وارتفع في السماء. وانتثر خلفه رذاذ ضوء لامع. وترك وراءه رائحة عطر ارتاحت لها نفس الصغير. فاشتدت أطرافه. وسرى الدفء والشجاعة في قلبه.

Twitter: @ketab_n

2

مرّ شهر على مشاهدة إزار لذلك الاجتماع السريّ. وعلى هدي كلمات الملاك، سار لينجز فعل الخير الذي يرتاح له قلبه. فشدّ عزيمته. وصمّم أن يتجاوز العقبات التي قد تعيق طريقه. ويمّم شطر إيطاليا، حيث المقاطعة الصغيرة «ف...» التي يحكمها الدوق. وسار نهاراً وسرى ليلاً. ولا تخبر الحكايات كيف استطاع ذلك الصغير أن يعبر أمماً كبيرة وكثيرة، من دون معرفة لغاتها، ومن دون أن يمتلك شروى نقير. وتكتفي حكايات الباسك بالقول إن عزمه أوصله إلى مقصده. ووصل إلى بوابات قصر الدوق الحاكم.

ولم يكن للمغامر الصغير أن يصل إلى شخصية عالية المقام كالحاكم، لولا مساعدة الدوقة. إذ لمحته عند البوابات، أثناء عودتها من صلاتها في إحدى الكنائس لأجل شفاء ابنتها. وفي البداية، ظنّت أنه جاء ملتمساً الصدقة. فأعطته درهماً فضياً. وقالت له: «خذ هذه الصدقة، أيها الصبي المسكين. وادع لله بأن يمنّ على ابنتي باستعادة عافيتها. إن صلوات الصغار المساكين تسرّ الرب. ولسوف يعطيك المنحة التي يمنعها عنا».

Twitter: @ketab_n

سألها إزار بودّ: «هل ابنتك مريضة؟».

«أجل، ابنتي الحبيبة مريضة».

«إذن، سأشفيها».

هتفت الدوقة مندهشة: «أنت أيها الطفل المسكين! لا أظنك تعلم أن أمهر الأطباء وأذكاهم عجزوا عن شفائها؟».

«بالتأكيد لم أكن أعرف ذلك. لكني أعرف أنني جئت خاصة لأداوي الأميرة، ولسوف أشفيها».

عقدت الدهشة لسان الدوقة، وجعلت تحملق بإزار، الذي وقف هادئاً وقد أحاط الخَدَم به. بدت قامته مستقيمة بتواضع، وقد انسدل شعره الذهبي على كتفيه في جدائل مُجعّدة. وشعّ من نظراته النقيّة الصدق والود. وحامت فوق شفتيه ابتسامة ودودة، نجحت في استمالة قلب الدوقة. وطفقت تشاور السيدات الفاضلات اللاتي كُنّ برفقتها. وأجمعت آرائهن على إتاحة الفرصة للصغير كي يقرن أقواله بالأفعال. فأمسكت بيده. وعبرت به غرف القصر الفاخرة. وفي الوقت الذي تلاقى فيه إزار مع الدوقة، صعد الدوق الحاكم إلى غرفة ابنته الذاوية ذات الثمانية أعوام، وجلس بجوار سريرها. ونظر إلى عينيها اللوزيتين الكبيرتين، فرآهما غارقتين في محجريهما وقد غاب عنهما بريق الحياة، وأحاطت هالات سود بجفنيها. وأوحى شحوبها الهائل

Twitter: @ketab_n

بقرب نهاية تلك الزهرة التي ذبلت مُبكراً. وفقدت شفتاها الجافتان لونهما الزهري. لقد كان من المأسوي النظر إليها. ولم يحطم شيء قلب والدها سوى رؤية ابنته الحبيبة تعاني مثل هذا العذاب البطيء. وحلّ بالأب حزن عميق جفّف مآقيه من الدمع.

وتوجّب عليه، إضافة إلى تحمّل العذاب المُمض، أن يخفّف لوعة أمّ ابنته أيضاً.

وبينما هو غارق في تلك الأفكار، فُتِح باب غرفة المريضة. ودلفت منه الدوقة مُمسكة بيد إزار، وقد تبعها خدمها وصديقاتها اللواتي جذبتهن تلك القصة الغريبة وتشوقن لمعرفة نهاية الأمر كله. لم يظهر إزار أدنى دهشة لا عندما مشى على السجاد الوثير للمنزل الملكي، ولا عندما مرّ من غرف ملؤها الدمقس والقطيفة والذهب والرخام. ولم تكن شفتاه لتبتسمان، إلا عندما تنظر إليه الدوقة. ومن يرى ذلك الهدوء غير المندهش بالرخاء والفخامة، لا يدور في خلده أن الطفل قضى عمره مشرداً، يتنقل بين غابات تكسوها الأعشاب البرية، وأنه ما نال مرقداً أفضل من الأرض الصلبة، في الغرف الخلفية لأكواخ الباسكيين في الجبل. ولم تفت رباطة جأشه تلك الدوقة التي ثارت في قلبها آمالٌ مضطربة. ونادراً ما دخلت الدوقة غرفة الابنة المريضة، من دون أن تصادف الدوق فيها.

وفي هذه المرّة، نهض الزوج للقائها قائلاً بصوت حزين:

Twitter: @ketab_n

«أعتقد أنه يجب أن نفقد الأمل الآن، فإن ابنتنا تسير نحو الموت حثيثاً».

وأجابته: «يا حبيبي. التمس بعض العزاء. فمن يدري؟ لعل الأمل بالشفاء لا يزال قائماً».

قال الدوق: «للأسف. لقد فقدت كل أمل. يا عزيزتي، إن ابنتنا تموت بسرعة».

واستدارت الدوقة صوب إزار الذي وقف خلفها، مُلاحظة أنه ينظر إلى الدوق ويبتسم. وأمسكت بيده، جاذبة إياها إلى قربها: «أياً كنت يا هذا: أصحيح أنك تقدر على شفاء ابنتنا؟».

وأجاب إزار بهدوء: «لقد جئت إلى هنا لأفعل ذلك تحديداً».

توجّهت الدوقة إلى زوجها قائلة:: «أترى؟ ما زال ثمة أمل».

ومع دهشته الكبيرة، سأل الدوق: «من أنت؟ أأنت ملاك أرسله الرب ليريحنا؟».

وردّ إزار: «أنا يتيم مسكين، يا سيدي».

«ومن أين جئت؟».

«أتيت من مكان بعيد».

وسأله الدوق الغارق في الحزن: «أجئت لتشفي ابنتي؟».

«نعم. ذلك كان مقصدي الوحيد من رحلتي التي مشيت فيها نهاراً وسريت فيها ليلاً لمدة شهر».

Twitter: @ketab_n

وندّت شهقة استغراب من أفواه كل من شهد تلك المحادثة الفريدة. ورفع الدوق يده إلى جبهته، وكأنما ليهدئ دماغه المشتعل. وبعد هنيهة، استرد عزمه. وتنحى من الطريق الموصل إلى سرير الابنة المريضة والفاقدة الوعي. وأشار إلى الصبي بالاقتراب منه.

أثارت أجوبة إزار غير العادية ورباطة جأشه، كل من شهد تلك الواقعة. وشمل ذلك صديقات الدوقة وخدمها، الذين تجمعوا عند مدخل غرفة نوم الابنة. اقترب إزار من السرير. وبصمت، حدّق للحظات بالابنة الفاقدة الوعي، التي لم يبد عليها سوى القليل من معالم الحياة. وتمتم بصوت خفيض: «إذن، تلك هي الزهرة الهالكة». وساد توتر عظيم. وفجأة، صدر من الجمع صرخة فرح. إذ ابتسمت الأميرة بحزن. وكانت تلك الابتسامة أول علامة للحياة تصدر عنها منذ أيام طويلة.

وما إن رأت الدوقة ابتسامة ابنتها، حتى خرّت راكعة على ركبتيها أمام الصبي. وعلت وجهها نظرة يستحيل على الكلمات وصفها.

«استحلفك بالرب أن تنقذ صوفيا».

وأجاب إزار بصوت ملؤه الحكمة: «انهضي أيتها الأم المسكينة الحزينة. لقد جئت لأشفي ابنتك. ولسوف أفعل ذلك».

Twitter: @ketab_n

قالت الدوقة: «أتسمعين ذلك يا ابنتي؟». وألصقت شفتيها بيد الابنة الباردة «لقد جاء هذا الصبي ليشفيك».

فتحت الابنة عينيها اللتين غادرهما الضياء تقريباً. ورسمت ابتسامة شاحبة. ومدّت يدها إلى الصبي اليتيم.

وصلت إثارة الحاضرين إلى ذروتها. ووضع الدوق يديه على رأس اليتيم. وقال بصوت مهيب: «أقسم بتاجي إن شفيتها لأجعلنّك أخاً لها». وشكره إزار بهزّة من رأسه. ثم غادر الغرفة مُسرعاً طالباً ألا يتبعه أحد. وتنحى الجمع جانباً باحترام، مُفسحاً له طريق المرور. نزل الصبي السلالم.

وذهب إلى الحديقة. وفتّش كل زاوية وركن. وبعد بحث مُدقّق، عثر على التمثال المكسور مرمياً وقد نمت فوقه أكوام من الأشواك المتشابكة والأعشاب البريّة. وأزاح ذلك الركام، قدر استطاعته. وبجهد، استطاع رفع التمثال. وبغبطة، عثر على الضفدعة الملعونة التي ما إن كُشِفَت حتى حدّقت بإزار بنظرات متوحشة شرسة. قفز إزار على الضفدعة. وحطم رأسها. وعاد بسرعة إلى غرفة المريضة، حيث كان الجمع قلقاً من طول غيابه. وعندما فتح الباب، ودخل إزار، ارتسمت معالم الارتياح على الوجوه، لعودة ذلك الطفل الغامض، الذي عاد ليقف وسط جمعهم هادئاً ورابط الجأش كعادته. اقترب من السرير. وقال: «يا

Twitter: @ketab_n

أختي صوفيا، هل تسمعينني؟».

وأجابت الأميرة: «نعم. لم أعد أشعر بذلك الشيء الثقيل رابضاً على صدري».

«لك المجد يا ربِ. لقد نجت طفلتي»، صرخت الدوقة. وانهمر الدمع من عينيها مدراراً.

«هل سمعت ما قالته أمك؟ انهضي. لقد شُفيتِ».

وببطء، نهضت الأميرة. وجلست في سريرها. وتلفتت حولها كشخص يستيقظ لتوّه من نوم ثقيل. ودعكت عينيها. وبابتسامة قالت: «نعم، أنا بخير».

وأخذ الدوق إزار بين ذراعيه. وقال: «باسم الرب القوي، أتّخِذُ لي ولداً هذا اليتيم الذي أفاض الفرحة في بيتنا. هل توافقين، أيتها الدوقة؟». ولم تكن الأخيرة لتمتلك من إجابة سوى ركوعها أمام اليتيم قائلة: «ابني: بارك أُمّكَ».

وذاع صيت هذا الحادث الرائع في إيطاليا. وعَبَرَ جبال الألب. وصار موضوعاً لأغاني المغنين الرحّالة في المقاطعات، الذين صاغوه في مقطوعات شعرية رقيقة. ووصل إلى شعراء القبائل في الباسك، فنقلوه إلى الجبال المجاورة، في أغنيات تُمجّد أبطاله. ووصل إلى سكان مقاطعة أكويلار، التي شهدت بداية ذلك الحادث أصلاً، فتآلفوا بسرعة مع تفاصيله.

Twitter: @ketab_n

3

قلنا في القسم الأول من القصة إن لانوا استمر في سيره حاسر الرأس وسط الثلوج والضباب، بعد أن دفع أخيه وأسقطه أرضاً. وسرعان ما أدرك أن إزار لم يقدر على اللحاق به، فتوقف آملاً أن يلتحق به أخوه بسرعة. ومرّ الوقت، من دون أن يظهر أثر للأخ.

وأحسّ بالضيق. وشرع بمناداة إزار على أمل أن يصله الصوت. وكرّر مناداته مراراً، من دون جدوى. فلم يأته جواب، سوى صمت الجبال. وأحسّ بالاضطراب إذ أدرك أن الضباب الكثيف يمنع صوته من الذهاب بعيداً. وعاد إلى حيث ترك أخاه لكنه لم يجده هناك. واستولت على لانوا موجة من القنوط والندم. وبكى بحرقة على أخيه وندم على خذلانه إياه. واشتطّ خياله فتصوره ميتاً من البرد والجوع، في تلك الجبال الموحشة. وتخيّل أن أخاه قضى مُتوسّلاً مساعدته ومُديناً معاملته القاسية. واستولى اليأس على لانوا المسكين. فراح يركض على غير هدى منادياً على إزار بصرخات مدوّية. ثم ارتمى أرضاً، وهو ينتحب ويشدّ بشعره. ولم يُجْدِه ذلك كله نفعاً. وقضى الليلة بأكملها عند تلك الصخرة، في أسر الحمى والندم. وفي اليوم التالي،

Twitter: @ketab_n

جاب الجبال المجاورة باحثاً. ولم يعثر على آثار أقدام تدلّ على أن كائناً بشرياً عبر تلك الأرجاء. وعندها، حطّت على روحه سوداوية الكآبة. ومنذ ذلك الحين، لم يسمعه أحد مُنشداً أغانيه العذة. وأضحى متوحشاً كارهاً للبشر. وابتعد عن الجميع.

ويا لشقاء ذاك الذي يجرؤ على سؤاله عن أخبار إزار! وأمضى خمسة أشهر في حال الضياع والوحدة، مُفتشاً بشكل مستمر في الغابات والأمكنة القصيّة. وشكّ من يعرفه من الرعاة في أنه ارتكب إثم قايين بقتل أخيه. وفيما تراكمت تلك الشكوك، انتشرت الأنشودة التي تقصّ حياة إزار وصوفيا الجميلة. وردّدتها الألسن بلغة الباسك وأشعارهم. وروت الأنشودة تفاصيل ما حدث منذ انفصال الأخوين ووصولاً إلى تبني الدوق الحاكم لليتيم. وبلغت الأنشودة أذني لانوا فمنحته سعادة لا توصف. وأراحت قلبه من ثقل الندم. واعتاد أن يسير خلف من يغني الأنشودة، ليطلب عند انتهائها، وبتواضع جمّ، أن تُعاد ثانية. وسرعان ما تغيّرت طِباعه فصار ودوداً لين العريكة. وجاء ربيع حلو بعد شتاء قاس. وبعد عواصف ديسمبر، هبّت نسائم أبريل المُعطّرة. وارتَدَت الجبال إهاباً قشيباً أخضر. وغنّت العصافير بحبور ألحان عودة فصل الحب. وكالعادة، ظلّ أكويلار قائماً

Twitter: @ketab_n

وحزيناً، من دون أن تمسسه السعادة التي غمرت الطبيعة حوله.

وقيل أن أكويلار يحسّ بالغيرة من الفرح الذي يعمّ الطبيعة، لذا يؤثر أن يطفئ ابتسامة ذلك المشهد، بإظهار وجه شرير قاتم أجرد يكون نقيضاً للمرح والضحك المرتسمين على ما يجاوره من جبال. فلا تغني العصافير على أشجار أكويلار. ولا يمكث شيء سوى العزلة والصمت.

وفي أحد الأيام، في شفق الغروب، لمح الرعاة شكلاً بشرياً يتجوّل فوق قمم أكويلار. وأصابهم ذلك بالدهشة والذعر. وضربت أشعة الشمس المائلة ذلك الشكل، فاتّخذ حجماً ضخماً. وإلى جانبه، ظهر شكل آخر يقلّده في حركاته كلها. ولم يكن ذلك سوى خداع بصري مألوف في تلك المرتفعات. إذ تعطي الأشعة المائلة للأشياء حجماً مضاعفاً. وكذلك ترى الأعين ظلّه مضاعفاً بأثر تكسّر خيوط الأشعة أثناء عبورها كتل البُخار. ولكن الرعاة يُنحّون تلك التفسيرات جانباً. ولا يرون في تلك الظاهرة سوى نذير شر مُحدق، ما يوجب عليهم الحيطة والحذر. وكذلك يخشون أن يفاجئهم الليل في المناطق المجاورة للجبل الملعون حيث، بحسب اعتقادهم، تتحضر لعنة شريرة للانطلاق. ولذا، عمدوا إلى جمع مواشيهم. ولجأوا إلى بيوتهم وأكواخهم. وأوصدوا دونهم الأبواب.

Twitter: @ketab_n

لم يكن الشكل الحائم على قمة أكويلار سوى لانوا. فمنذ لحظة سماعه الأنشودة التي تروي قصة أخيه، تملكته رغبة عارمة في رؤية إزار. وحالت كبرياؤه دون تحقيق تلك الرغبة. وغرّته عزّتها. وطفق يقول في دخيلته: «كلا. لقد تركته بدناءة عندما كان مسكيناً وضعيفاً. فلا يجب أن أسعى للقائه بعدما أمسى غنياً مرموقاً. فلن أذهب إليه إلا بعد أن أحقّق عملاً نبيلاً وكريماً. وعندئذ أطلب غفرانه. وأنا واثق أنه سيسامحني في حينه. سأذهب إلى الجبل الملعون. وأشهد ذلك الاجتماع الشرير. ثم أنطلق لأحقّق عملاً نبيلاً».

يلزم لمن تراوده أفكار كتلك، خاصة إن عزم على تحقيقها، أن يتحلى بشجاعة خارقة، وبقوة شخصية تنبو عن الشكوك. ومن المؤكد أن لانوا الشجاع حاز درجة عالية من تلك الخصال. وثمة حافز آخر حرّكه، إضافة إلى تلك الخصال، هو الغرور. إذ اعتاد على أن يقول لنفسه: «ماذا؟ أأكون أقل قدراً من أخي، وأنا قوي وهو ضعيف، وأنا شجاع وصلب، وهو خنوع وليّن؟ كلا. كلا. سأصعد الجبل الصعب. وسأتحدى المخاطر التي قد تواجهني، كي أحقّق مصيري».

اقترب الليل. وسار لانوا في الطرق التي وصفتها الأنشودة. وعثر على الشجرة. واختبئ في جوفها. وتصادف أنه يوم

Twitter: @ketab_n

السبت الذي يخصّص ليلُهُ للاجتماع الشرير. ولم يتأخر انعقاده. فقبيل منتصف الليل، بدأ لانوا يسمع صوتاً غريباً تجعله كل لحظة أكثر قُرباً. وشرع في الارتجاف لدى رؤية الظلال الغرائبية تسير صوب البقعة التي اختبأ فيها. وتصبّب عرق بارد من جبهته عندما حيّت الظلال بعضها بعض، وانتظمت في الرقصة الدائرية التي أثارت دهشة إزار قبلاً. وزاد في رعبه تلك الصرخات والضحكات الشيطانية التي صدرت من الساحرات. وبدا فاقد الحول عندما هبطت الساحرات، وتبيّن أشكالهن المنفّرة. وشرعن في رقصتهن الغرائبية، فيما تآكل لانوا الندم على إعطائه أذناً صاغية لصوت الكبرياء. ولكن الشرّ حصل. ولم يَعُدْ له من مخرج سوى تحمّل عواقب غلطته الهائلة. وصمّم أن يتماسك قدر استطاعته، بانتظار نهاية تلك المسرحية المأسوية. ولم يطل انتظاره. وسرعان ما اهتزت أركان الجبل. وظهر عرش العاج الشيطاني، وقد جلس عليه أكثر الكائنات إثارة للرعب.

بدا رأس أمير الشرّ ضخماً. والتمعت عيناه المفتوحتان إلى آخرهما، فكأنهما فوهة بركان. ولامست أذناه الكبيرتان كتفيه. وصدر من فمه، الذي لا تحدّه شِفاه، دخان كثيف لم يحجب أنيابه الصفر الطويلة الحادة. وغطّت أظافر حادة ومعقوفة، كفيه وقدميه. وتناسب جسده مع ملامحه البشعة. وألقى نظرات

Twitter: @ketab_n

وحشية على حاشيته التي كانت ترتعش بانتظار أوامر سيدها. ثم نادى بصوت عميق، كأنه يصدر من أعماق كهف: «بازوتي! بازوتي!»، وبرزت إحداهن من جمع الساحرات. وجلست قبالة عرش العاج.

صرخ ملك الشرّ: «ها! ها! ما الذي حلّ بوعودك الرفيعة؟ وعودك المخادعة؟». وبصوت مرتجف أجابت الساحرة: «لم أستطع تحقيقها».

وقال الشرير الجالس على عرش العاج: «اسمعي. لقد شُفيت الأميرة. وبدل أن يفكر أبواها بالانتحار، فإنهما يرفلان في سعادة تتزايد يومياً. وصارا أكثر إعجاباً بابنتهما، وأشد إيماناً بعدوي».

«يا سيدي»، نطقتها الساحرة وهي نصف ميتة من الفزع.

وأجاب الشرير: «صمتاً! أرى أنك لم تعودي نافعة لي في هذا العالم. إذن، اذهبي وانتظريني في عالم آخر».

وضرب الأرض بقدمه، فظهرت حفرة ابتلعت الساحرة. وأحنت بقية الساحرات جباههن حتى لامست الأرض. وبقين صامتات. ثم قال الشرير: «الآن، سأتفحص الشجرة». وارتعش لانوا في مكمنه عند سماعه تلك الكلمات. وأدرك أن نهايته قد حلّت. وسرعان ما أمسكت به أيدي الساحرات. وشرعن في تعذيبه بالطرق الممكنة كلها. وألقت العصبة الشيطانية بجسده

Twitter: @ketab_n

قرب العرش العاجي لأمير الظلام. «يبدو أن لدينا فضولي هالك آخر»، صرخ الشرير، فيما ارتسمت على وجهه تكشيرة رهيبة. وأضاف: «اقترب أيها الفاني. اقترب». في ذلك الظرف العصيب، بذل لانوا جهداً خارقاً ليرسم على محياه ملامح السخرية.

«يبدو أنك لا تخاف منا» قال بعلزبول مُصرّفاً أسنانه. وجاءت إجابة لانوا على هيئة هزّة استخفاف من كتفيه.

ولاح أن مواجهة ضارية على وشك الاندلاع بين الصبي المسكين الذي لا يملك سوى صلابة شخصيته، والشيطان المسلح بقوى جهنم كلها.

وحدّق الأخير في لانوا لبعض الوقت، ثم قال: «ما الذي كنت تفعله في جوف الشجرة؟».

وبضحكة أجاب لانوا: «كنت أسخر منك».

وزمجرت الساحرات: «انتهاك! انتهاك!».

وصرخ الشيطان: «صمتاً». وخرست الساحرات. وبعد هنيهة صمت، قال: «إذن، كنت تسخر مني؟».

«نعم. أسخر منك بإيماني!».

وزمجر بعلزبول قائلاً: «هل خطر لك أن كائناً يستطيع أن يتفاخر بأنه سخر مني وينجو من العقاب؟».

ورد لانوا: «نعم. ثمة من فعل. لقد نجا أخي بفعلته تلك،

Twitter: @ketab_n

وكانت النتيجة رائعة».

«آه! آه! إذن، أنت أخ ذلك الصبي الذي أنقذ حياة الأميرة الإيطالية؟».

ولم يرد لانوا.

وقالت ساحرة قريبة منه: «أجب أيها اللعين».

واستدار لانوا صوبها بسرعة. وأمسك برأسها. وطرحها أرضاً. ووضع رجله على عنقها. وعقد يديه بتحد. وحدّق في الشيطان بثبات. ولم يحرك الأخير ساكناً أمام الحركة السريعة التي نفّذها لانوا، الذي وقف هادئاً ثابتاً.

وبعد هنيهة قال: «أقسم بمُلكي أنّك تثير اهتمامي أيها الصغير».

وأجاب لانوا: «إن كنت أثير اهتمامك، فأنا أحتقرك بعمق».

«هل تجرؤ على احتقاري؟».

«نعم».

«تقول ذلك لأنك تجهل من أنا».

وزمّ الصغير شفتيه مُظهراً احتقاره كلياً.

«اقترب مني وأمسك يدي، إذا كانت لديك جرأة كافية»، قال الشيطان. ثم مدّ يده المسلّحة بأظافر حادة.

Twitter: @ketab_n

وأزاحت قدم لانوا الساحرة وشكلها المقرف جانباً. وتقدم بثبات. وأمسك يد الشيطان.

سأله: «هل تحرقك؟».

«لا أُحسّ بأي شيء»، أجاب لانوا مُظهراً لامبالاة تامة. والحال أن شعره كاد أن يقف عند ملامسة تلك اليد الملتهبة.

ودمدم بعلزبول: «إنه أمر غريب».

ردّ لانوا: «بإمكانك أن ترى بوضوح أنني لا أخافك».

فأرخى الشيطان قبضته عن يد الصبي قائلاً: «أرى أنك لا تخافني. ولا يُثبت ذلك أيضاً أنك تحتقرني».

أجاب لانوا بعجرفة: «أتريد برهاناً على ذلك».

«نعم. بالتأكيد. دعنا نر برهان ذلك».

وصرخ لانوا: «إليك بواحد». ثم بصق في وجه بعلزبول.

لا يستطيع قلم أن يصف الغضب الشرير الذي اجتاح الملامح المتوحشة للشيطان. وندّت عنه زمجرة هائلة تبدو انفجارات البراكين همساً بالمقارنة معها. ونهض بغضب عن عرشه. وأمسك الصبي من مفاصله. ورماه عالياً، كمن يقذف حجراً من منجنيق. وألقاه صوب هاوية سحيقة. وتدحرج لانوا إلى قاع تلك الهاوية جثة هامدة. وارتفعت روحه النقيّة إلى السماوات العُلى.

Twitter: @ketab_n

ومنذ ذلك الوقت، حملت تلك الهاوية اسم «محرقة تطهير الروح». ويقسم الرعاة أنهم يسمعون ليلة الأحد، عدا أحد الفصح المجيد، صوتاً يأتي من أعماقها، يُشبه الصوت الذي يصدر عن سقوط جسد إلى قعرها.

Twitter: @ketab_n

1
أرغويدونا[1]

في الطريق الحجرية الملتفّة التي تصل بين وادي «أورنييتا» وبوابة بلدة «أريكارت»[2]، سار موكب خوان الأزكوي[3] تحفّ به حاشية من الصيادين الأقوياء، وقد تدلت جُعب السهام من أكتافهم، وسبقتهم كلاب الدرواس[4] الطليقة. ومن الناحية الثانية لبوابة «أريكارت»، تقدّمت حاشية مُشابهة من الصيادين والكلاب، لتُكوّن موكب رومان الألزاتي. وسلكت طريقاً أشد وعورة من الطريق الذي سبق ذكره. وحثّ هذا الفارس المتمرّس خطاه صوب البقعة عينها التي توجّه إليها خوان الأزكوي، وهو رجل متقدّم في العمر، لكنه مليء بالعافية. وبدا كلا الكهلين وكأنهما استردا شبابهما. وقد سارا بخطى قوية وبإيقاع متسارع.

وإذ وصلا إلى مسافة قريبة من بوابة «أريكارت»، توقّفا. وأمرا الصيادين بالسير قُدماً. وسبقت حاشية الأزكوي في الوصول إلى نقطة اللقاء.

(1) وهج كائن المستنقعات، أو النار المخادعة (المؤلفة).

(2) أيضاً في شمال إسبانيا (م).

(3) اسم عائلة معروفة في تلك المنطقة منذ القرن الخامس عشر (م).

(4) نوع من الكلاب الضخمة (م).

Twitter: @ketab_n

وسألوا أندادهم: «هل أنتم من عائلة الألزاتي؟».

«نعم. هل أنتم من حاشية الأزكوي؟».

«نعم. هل جئتم بنية طيبة ومن أجل السلام؟».

«نعم».

«إذن، فعلى الرحب والسعة».

ثم رفعوا أعلاماً بيضاً. ولوّحوا بها في الهواء. وعند تلك الإشارة، تقدّم الرئيسان كلاهما باتجاه البوابة.

«ليكن سلام من الرب عليك يا خوان»، قال الإلزاتي حاسراً عن رأسه الأبيض.

«وهذا ما أتمناه لك يا رومان»، قال الأزكوي نازعاً قبعته أيضاً.

وحيّت حاشيتا الزعيمين بعضهما بصمت.

«لقد فتحت كلمات كورا[1] قلبي لتقبّل التسوية. أحمد الرب الذي أمدّ في عمري لكي أعطيك هذا النصف من رغيف جاء قمحه من إهرائي. وكذلك أمنحك نصف كوب من حليب أبقار مزرعتي».

أكل خوان نصف الرغيف. وشرب الحليب ذي الرغوة. ومدّ يده قائلاً: «الآن، أمدّ يدي إليك، برهاناً على الحب والصداقة

(1) في الأساطير الرومانية تمثل كورا الإلهة التي خلقت البشر من الطين (م).

Twitter: @ketab_n

اللذين أكنّهما لك. وليرع الرب السلام والتفاهم بيننا فلا ينهاران ثانية».

وأجاب رومان: «آمين، من كل قلبي». وصافح يد خوان. وهكذا، عقد الرجلان صُلحاً مُهيباً. وبإشارة من الرجلين، تقدم مرافقوهما. وصافح واحدهما الآخر بحرارة وفرح ظاهرين.

وفي أثناء إتمام مراسم الصلح، اختبأ ثلاثة رجال في حُفَر. وشرعوا يقضمون شفاههم ويفركون أيديهم شاتمين بسبب إنجاز الصلح بين العائلتين اللتين كانتا متصارعتين حتى تلك اللحظة.

وعندما شرع الشيخان في العودة إلى منزليهما، كلاً مع مرافقيه، عقد الرجال المختبئون الثلاثة اجتماعاً مطوّلاً. وساروا صوب بلدة «باغولاغا». ولم يكن الطريق إليها كما هي راهناً.

ففي ذلك العصر، كانت الأجمات تملأ ضفتي نهر «أوروميا»، فيصعب شقّ ممرّ بينها.

ولم يبدّد صرير طاحونة الهواء صمت البراري. ولم تتجمع نفخات كور الحدّاد لتصنع سحباً محمّلة بالشرّر. لم يكن ثمة طريق يوصل إلى النهر، ولا جسر للعبور بين ضفتيه. ونثرت الطبيعة عطايا من جمالها البكر على تلك الغابات العصيّة وتلالها وصخورها وينابيعها وجداولها. وفي القسم العلوي من مجرى النهر، باتجاه مدينة «أرانو»، يلتفّ «أوروميا» بزاوية

Twitter: @ketab_n

حادة. ويرجع ذلك إلى صخرة ضخمة تعترض مجراه. فتُشكّل ما يشبه اللسان البري. وتُلقي ظلالها القاتمة على مجرى النهر. ويبدة هذا اللسان الصخري شبيهاً ببرج قلعة دمّرت إبان غزو. وعند قمة اللسان عينه، ظهر ما يشبه الهرم الصغير. ولم يكن سوى عفريتة عجوز أَقْعَت جالسة هناك. واعتادت المناطق المجاورة على تسميتها «ساحرة باغولاغا». وبدت العرّافة منهمكة في تقشير بعض الجذور، التي تستخدمها لأغراضها الخفيّة. وإذ لمحت الرجال الثلاثة يتقدمون باتجاه اللسان الصخري، توقفت عن عملها. وسُمع صوت صفير حاد يخترق الهواء. وتوقف مسير الرجال الثلاثة المنزعجين من السلام المُنجز بين العائلتين. وسرعان ما انضمت إليهم العجوز التي هبطت من الصخرة. وبدا الرجال الثلاثة الذين أوقفوا عمل العجوز على الجذور، شديدي الشبه ببعضهم بعض.

فقد امتلكوا العيون السود الغاضبة عينها، وتلوّنت ملامحهم بصفرة شاحبة. وعَلَت أفواههم شفاهٌ حمرٌ غليظة، لكنها بالكاد غطّت أسنانهم البيض الحادة. وتشابه لون الشعر وكثافته لديهم أيضاً، فلو أُحصي لتساوى عدداً. وكذلك تشابهت أطوالهم، ونبرات أصواتهم وطريقة مشيهم. وبكلمة مختصرة، تشابه الثلاثة إلى حدّ أنه كثيراً ما خُلِط بينهم خطأً. وسار ثلاثتهم بضع

Twitter: @ketab_n

خطوات لملاقاة العجوز التي هبطت التلة مرتدية معطفاً أخضر مُطرّزاً بالأحمر. وبصوت مُرتعش، قالت الساحرة: «كنت بانتظاركم. فهل جئتم من أجل شراب المحبة؟».

«نعم. جئنا للحصول عليه. وإضافة إلى ما طلبناه منك، نريد منتجاً آخر من فنونك الشريرة».

وسألت الساحرة: «هل يتصادف أنكم تريدون تسميم الفتاة؟».

ونظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم بعض باستغراب.

«والآن، أعطِنا الشراب الذي يُفترض أن يشعل قلب الفتاة بحب أحدنا».

وردّت العجوز: «لقد جهّزت ذلك الشراب فعلياً. ولكن خطرت لي فكرة من وحي أنكم الثلاثة تحبونها بوَلَه متساو. فما الذي يحلّ بالاثنين اللذين لن تختارهما الفتاة عندما تقع في غرام أحدكم؟».

ومرّة أخرى، نظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم بعض باستغراب شديد، عند سماعهم سؤال الساحرة. وبعد أن تبادلوا النظرات لبعض الوقت، قالوا لها: «ذلك شأننا».

ردّت الساحرة: «ليكن ذلك، إن لم أكن مخطئة، أعتقد أنكم طلبتم شراباً ثانياً، إضافة إلى الذي حضّرته لكم».

Twitter: @ketab_n

«نعم. هذا صحيح».

«أي أثر تريدون لهذا الشراب أن يصنعه؟».

وأجاب ثلاثتهم معاً: «نريد أن يصاب من يشربه بالجنون».

«ليس من أمر أكثر سهولة. عندما وصلتم، كنت أجمع بعض الجذور التي ما إن أعمل عليها، حتى تعطي الشراب الذي به ترغبون».

«سندفع لك بسخاء مقابله».

«أتوسم ذلك. سأعطيكم كمية إن أُحسن استخدامها فبإمكانها أن تُصيب بالجنون نصف سكان مدينة سان سباستيان. تبدو فكرتكم رائعة. وبإمكاني أن أرى سلفاً مئات الرجال والنساء والأطفال، يرقصون ويتلوّون كالحيّات ويطلقون صرخات كعواء الذئاب. سيكون مشهداً جديراً بالتفرّج عليه. وأعدكم ألا أتخلّف عن ذلك العيد. أُكرّر أنها فكرة ممتازة. لم يكن عبثاً أن أباكم الشيطان قد أرسلكم إلى هذا العالم».

«أتعنين أننا أبناء الشيطان؟».

«نعم. لقد أخبرني الشيطان نفسه بذلك. لقد وضعكم على شواطئ أوربا. وسماكم الحسد والغضب والتفاخر. وفكر أن أحداً سيجدكم، ولن يخسر شيئاً إذا أخذكم. وجعلكم متشابهين، إلى حدّ أنه قد يُخطئ، هو نفسه، في التمييز بينكم».

Twitter: @ketab_n

وأجابوا: «لقد عثر الألزاتي علينا. وأعطنا أسماء أخرى. وربّانا كأننا أطفاله». ثم قال أحدهم: «لقد اقترب الليل، وأمامنا درب طويل لنمشيه».

وردّت الساحرة: «امضوا إذن».

وانصرف الرجال الثلاثة. وتبعتهم العرّافة. واختفى الأربعة في الغابات السوداء الكثيفة. بعد نصف ساعة، شوهد الرجال الثلاثة وقد حمل كل منهم قارورة في يده اليُسرى، ودسّ يده اليمنى في معطفه الكابّوزي. وساروا تفصل بينهم مسافة غير قصيرة، ولكنهم كرّروا النظر إلى بعضهم بعض في شكل يوحي بغياب الثقة بينهم. وجلست الساحرة في أعلى اللسان الصخري. وعندما تيقّنت من ابتعاد الرجال الثلاثة عن ناظريها بمسافة كبيرة، انفجرت في ضحك متهكّم. ثم شرعت تقفز وتصرخ بصوت عال: «يا سيدّ الشرّ! سنرى الآن إن كنت أستطيع أن أنتقم لنفسي منك. وسيحمل أبناؤك الثلاثة علامات انتصاري».

Twitter: @ketab_n

2

نهضت غابرييلا من سريرها، مبتسمة متورّدة الخدّين. فكّرت في مقعد السنديان المُحاذي للنافذة. لقد استمعت إلى الإعلان الأول عن الحب، أثناء جلوسها عليه. وهناك أقسمت أيضاً على ما أحسّت به. كانت غابرييلا جميلة. في كل يوم، تنعكس الأشعة الأولى للفجر على عينيها الحلوتين، وتهرع نسائم الصباح الأولى لمداعبة خصلات الشعر الكستنائي لعذراء «غويبيزكوا»[1]. وتنحني الزهور عند مرورها، كأنما البنفسج والأقحوان وورود السوسن الأرجوانية تُحيي ملكة الأزهار. وانتظرت الفتاة المهذبة قدوم حبيبها وقتاً ليس بالقصير، وقد جلست على مقعدها. ولما طال غيابه، أحنت رأسها لتطلّ من النافذة، وتصغي لصوت قدوم الليل. كانت ليلة حالكة. وسُمع نحيب نهر «أوريا»، الذي يجر مياهه المزبدة عبر شواطئ «لاسارت» و«زوبييتا» و«أوسيربيل»، إذ راحت مياهه تتكسر على دعائم الجسور الخشبية. ويختلف غضب النهر الموحِل عن غضب المحيط. ففي البداية، ينتحب النهر، ثم يُظهر غضبه بزمجرات مخيفة، فتُذهَل منها الطبيعة وترتجف.

(1) الإقليم الذي تجري فيه أحداث هذه الحكاية في شمال إسبانيا (م).

Twitter: @ketab_n

واهتزت رؤوس أشجار البلوط الضخمة التي تكسو سهل «أورنييتا». وأصدرت أصواتاً تشبه خرير الماء المتدافع في شلالات بعيدة. وفي قلب الغابات الكثّة، تجمّعت غيوم كثيفة من أوراق الأشجار الصفر الجافة. وارتفعت لتظهر فيها، مع قدوم الليل، أسراب من الوطاويط وعصافير الليل. وصنعت زوابع ملتفة وتمدّدت جموعها عبر رياح الليل، قبل أن تسقط في المياه المضطربة لبحر «كانتابرا» أو في النهر.

أصاخت غابرييلا السمع لتلك الدمدمات المتمازجة، التي ليست سوى صوت تنفس الطبيعة في أثناء نومها. لكنها لم تسمع صرخة الـ «ليكايو»[1] الفرِحَة التي يطلقها أنطونيو الأزكوي، أحب الناس إلى قلبها. ومرّت ساعة تلو الأخرى. وبدأت صومعة كنيسة «القديسة باربارا» التي تنتصب على مرتفع كأنها عشّ اللقلق تبهت أكثر فأكثر، قد غلفها ضباب أبيض يخفي أشكالاً أكثر غموضاً. وفجأة، اقشعرّ جسد غابرييلا. وشحب خدّاها. وغابت عن ملامحها ابتسامة من تنتظر قدوم الحبيب. وامتلأت عيناها قلقاً من تأخره. وتردّد قرع أجراس بعيدة. ولم تكن بهيجة تُعلن يوم عيد، ولا منذرة تعلن اندلاع حريق.

وَوَشَت الأصوات الصادرة عن القرع البطيء للأجراس

(1) صرخة فرح تستعمل كإشارة (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

بخطب حزين. غاب عن غابرييلا أن الساعة الأولى من الثاني من نوفمبر تُكرّس للتذكير بقدوم اليوم الذي خصّصته الكنيسة لتذكّر الأحباء الذين رحلوا. ارتجَفَت. ولاح الاضطراب عليها بوضوح، مع ملامح استنكار. وأصاخت السمع برعب لقرع الأجراس، الذي ميّزته أذناها بوضوح. واهتزّ جسدها بحركة غامضة، إذ همّت بترك النافذة والخروج من المنزل. وعندها، سمعت صرخة حادة هزّتها أكثر من صوت مياه النهر وأشجار البلوط وزوبعة أوراق الشجر وقرع الأجراس الحزين. أعلنت تلك الصرخة قدوم حبيبها. وتساءلت: «في أي يوم وأي ساعة، جاء ليحدّثني عن الحب... أيها الرب، احم الأرواح المقدسة». وارتمت غابرييلا على ركبتيها. ومرّت ساعة تلو أخرى، ولم يظهر الشاب. واستمر النهر في النحيب. وتابعت الأوراق زوبعة طيرانها. واستمر قرع الأجراس.

Twitter: @ketab_n

3

هل شاهدت في مدينة شرقية، مئذنة طويلة تشمخ في الفضاء؟ هل رأيت في المياه الساكنة للخليج، صورة صارية لسفينة حربية على أهبة الاستعداد للإقلاع؟

هل رأيت من مسافة بعيدة في زرقة الأفق، الأغصان السامقة للبلوط ترتفع بأبهة ملكية فوق الأشجار جميعها؟ حسناً، تلك المنارة الشامخة، والصارية المرتفعة، وشجرة البلوط السامقة، كلها أقل وسامة ولُطفاً من أنطونيو الأزكوي. لقد انتهى تواً من إعادة ملء معلف حظيرة المنزل. وحيّته أخواته بالكثير من قُبَل المحبة. ورفع أبوه صلوات كثيرة من أجل راحة نفس من زوجته الراحلة. بدت الأشياء كلها هادئة في منزل الأزكوي. وتدثّر الشاب أنطونيو بمعطف كابّوزي. وأحكم الإمساك به. وأغلق باب المنزل. ثم ركض بكل قوته عبر الحقول. ولم تشكل المنحدرات المتكسّرة لوادي «غوابيرو» عائقاً أمام سرعته. ولم تُعِق ظُلمة ذلك الوادي خفق خطاه. وعلى تلك الصورة عبر الخلاء الواسع الذي يضم بلدة «أورنييتا». وشرع في صعود الطريق الحجري المُفضي إلى بوابة «أريكارت». وعند ذلك العلو، امتدت أمامه ظلمة

Twitter: @ketab_n

ظلال الليل، والانعكاس الشاحب لأمواج نهر «أوريا» المدمدمة. وعن يمينه، انتصب دير «سانت باربارا».

وعن شماله، امتدت سلسلة الجبال الوعرة التي تنتهي إلى منازل «أندوانيا». ثم نزع قبعة معطف الكابّوزي. ومسح جبهته الحارة. وأرسل صرخة الـ «ليكايو»، التي كانت إشارة متفقاً عليها مع حبيبته غابرييلا. وتحضّر للنزول صوب «لاسارت»، عندما لامس أذنيه قرع الأجراس الحزين. وبطريقة لاإرادية، اهتزّ جسد الشاب. وتذكّر أن أمه توفيت في الثاني من نوفمبر. ولم يدم طويلاً توتر أنطونيو عند تذكّره لـ «يوم جميع الأرواح». إذ تنتظره غابرييلا، التي لم يرها منذ وقت طويل بسبب خلاف بين عائلتيهما. وقد انتهى الخلاف الآن. وعادت الأمور إلى مجاريها بين العائلتين. ولذا، توقّف ليتلو صلاة قصيرة، ثم تابع سيره ممتلئاً بالغبطة والحب.

وامتد الممر الذي سلكه مسافة طويلة. ودخل إلى غابة البلوط العتيق وشجر الكستناء، بجذوعها المنخورة وأغصانهما الوارفة. ومع دخول أنطونيو الغابة، صار ظلام الليل قاتماً تماماً. وتوجّب عليه التقدّم بخطى بطيئة. وفجأة، ظهر ضوء صغير من قلب الأشجار العتيقة، له لون غامض يمزج الأبيض والأزرق. ثم سار بسرعة، ليصبح قريباً من ناظري الشاب أنطونيو، الذي وقف مدهوشاً يراقب ظاهرة الضوء المتحرّك.

Twitter: @ketab_n

وتنقّل الضوء، من دون أن يغادر الممر. وبدا غرائبياً لا لون له ولا بريق، ولا تحيط به الهالات التي تصدر من الأضواء عادة. ولم يصدر من نار ولا برق. ضوء لا تُطفئه ولا تُذكيه إلا أنفاس الموتى. وعندما يظهر ذلك الضوء، واسمه «أرغويدونا»، تنفتح القبور. وتُبرِز الجثث وجوهها الخالية من اللحم ويتناقل الموتى بينهم ذلك الضوء الصغير، كأنهم لاعبون يرمون كرة إلى بعضهم بعض. ويمارس الموتى تلك الرياضة في الساعات الأولى من يوم الثاني من نوفمبر.

وفي البقعة التي وقف فيها أنطونيو الأزكوي، حدثت معركة كبرى قديماً. وبذعر، تلفّت الشاب إلى يمينه ويساره. وتوقع أن تنفتح الأرض تحت قدميه عند أي خطوة، ليبرز منها من قضوا في تلك المعركة الرهيبة، مظهرين جماجمهم البيض، كي يشاركوا في هذا الاحتفال المقيت. ولم يحدث شيء من ذلك. وظلّت الغابة ساكنة. وبقي ما حولها صامتاً. ورفضت الأرض أن تفتح جوفها لتُظهر الموتى. وتشجع أنطونيو بالسكون والصمت. وتابع سيره إلى داخل الغابة. وسرعان ما تابعت الـ «أرغويدونا» سيرها السريع، وحركاتها المتناقلة. وبدت كأنها مصممّة على تأخير سير هذا الشاب.

وصرخ أنطونيو: «يا أمي المسكينة. من المؤكد أنّك لا تعلمين

Twitter: @ketab_n

أن الصراعات بين العائلتين انتهت. أفسحي لي، يا أمي الحبيبة، درب المرور، فإن حبيبتي غابرييلا في انتظاري». ولم تتزحزح الـ«أرغويدونا».

ورفع أنطونيو قبعته، مُحيياً الضوء. وانحرف عن ذلك الممر. وتابع سيره في الغابة. لكن الـ «أرغويدونا» غيّرت طريقها أيضاً.

ووقفت في وجه الشاب. هذه المرة، لم يعد لديه شك. وقال: «أُحب غابرييلا. لقد أطعتك خلال حياتك يا أمي. ويجب عليّ أيضاً أن أطيعك بعد مماتك. عمت مساء يا أمي الحبيبة. عمت مساء».

وارتد أنطونيو على عقبيه عائداً أدراجه، سالكاً الطريق عينه الذي جاء منه. ولحقه الضوء الذي لم يتركه إلا عندما غادر وادي «غوابيرو».

Twitter: @ketab_n

4

في ذلك الوقت عينه، اتّخذ مشهد غير عادي من قلب مرج الكستناء مسرحاً له. إذ شرعت الأغصان القوية لتلك الأشجار بالترنّح بأثر من قوة غامضة. لم يأت تمايلها من الريح، لأنها كانت ساكنة. بل سمعت الآذان من الغابة أصواتاً غامضة وغير مُحدّدة، كأن الأشجار دبّت فيها الحياة، وراحت تُتمتم بالكلمات. ولو اعتقد أحد في حينه، أن الأشجار تتكلم، لما أخطأ الظن.

ولاح كأن الهواء الذي تنفثه الغابة محمّل ببخار مسموم، والأرض تنتحب بصوت أجش. وأُثقل الجو بغموض ينذر بكارثة وخيمة. وحمل الهواء صوتاً يشبه خفق أجنحة ضخمة.

وانتقلت قوة الخفقان إلى الهواء. فاهتاج. واكتسب قوة زوبعة مفاجئة. واكتسح مرج أشجار الكستناء، بطريقة مرعبة. وماج نهر «أوريا»، فارتفعت مياهه مُصدرة نشيجاً قوياً. وأصمّت الأجراس الآذان بقرع كئيب. وسادت ضجّة من نحيب آت من عالم آخر. وأثقل الهواء بصوت تلاطم مجهول. وبدا كأن البحر يهرع، بكل غضبه، ليكتسح الغابة، مُعتزماً اقتلاع أشجار الكستناء المعمرة، وهدم الحواجز الكلسية وإزالة المنحدرات

Twitter: @ketab_n

الغرانيتية التي حما الرب بها الغابة.

وارتفع صوت له جِرْس قوي.

وسأل: «هل أنتم هناك؟».

وبدا كأن الأشجار أجابت: «نعم».

«لقد هزمتم مرّة. أيها الملعونون. أيها الملعونون!».

«ستكون المرّة الأخيرة، يا أبي. ولقد جئنا لننتقم لأنفسنا».

«وذاك ما سيكون. سأسلمكم أختكم الفتنة كي تساعدكم».

وسُمع خفق الأجنحة مرة أخرى. وانزاحت الغيوم والضباب التي كانت تغلف صومعة «سانت باربارا».

وتحرّكت بسرعة، كأنها تُطارد من قوة خارقة. وعبرت مياه «أوريامندي». وتجاوزت اللسان الصخري عند «إيغويلدو». وانزلقت على سطح البحر. وتلاشت في مسافة بعيدة عند الحدود المعتمة للأفق. وسكَنَ نحيب الأرض. وخفّ تمايل الأشجار. واختفت الأصوات الشريرة من الهواء، فكأنه صفا.

وفي الظلام، دار الحوار الغرائبي التالي:

«هل كل منكم متمركز في مكانه؟».

وأجاب صوت قريب: «نعم».

وردّدت الأصوات الأخرى: «نعم»، فكأنها رجع الصدى.

«أين أنت أيها الحسد؟».

Twitter: @ketab_n

«أنا هنا».

وفي تلك اللحظة، ومض ضوءان فوق أغصان شجرة كستناء. إنهما عينا أحد الأخوة. وسرعان ما انطفأ.

«وأين أنت أيها التفاخر؟».

«أنا هنا». وومض ضوءان كسابقيهما فوق أغصان شجرة كستناء أخرى. إنهما عينا أخ ثان. وكذلك انطفأ سريعاً.

«وأنت أيها الغضب، يا أخي المفضل، أين أنت؟».

«أنا هنا». وكما في المرتين السابقتين، ومض ضوءان فوق أغصان شجرة كستناء ثالثة. وشكّلت الأشجار الثلاثة مثلثاً تام الأضلاع. وكسابقيهما أيضاً، انطفأ الضوءان بسرعة.

«يا أخواني: المكان مُمسك بقلب الغابة».

«لقد بحثنا على الموقع المناسب، بكل عناية».

«هل سيمر أنطونيو من هنا، هذه الليلة؟».

«هذا ما تعتقده غابرييلا».

«ووالدنا يعتقد الأمر عينه أيضاً».

«إذن، هو أمر مُدبّر؟».

«أما دبّرنا كل شيء فعلياً؟».

«لكننا لم نحسم كيف سننجز الأمر».

«أقسم أن أُتمه بفأسي».

Twitter: @ketab_n

«وأنا بقوسي».

«وأنا بخنجري».

«كم نحن متفقون».

«لكنكم لم تتفقوا على الوسائل»

«إن هذا غريب! فلطالما كانت لنا الآراء والأفكار عينها».

«والحب والكراهية نفسيهما».

«يُبغض ثلاثتنا السلام».

«ونكره كلنا أنطونيو الأزكوي».

«ويحب ثلاثتنا غابرييلا».

«وفي المقابل، لا تُحبّ غابرييلاً أياً منا».

وانطلقت ثلاث ومضات حُمر من أغصان شجر الكستناء العتيق. وتلاقت في الفضاء.

«ماذا عن الشراب؟».

«إنه في النبع».

«وستشرب منه بعد غد».

«عند الفجر...».

«وبمعنى آخر، ما إن يحل الليل...».

«ستُحب أحدنا».

«ماذا لو أنها بقيت، على رغم كل شيء، تكره ثلاثتنا. ماذا

Twitter: @ketab_n

نفعل في حينه؟».

«سيكون أمراً سيئاً لنا».

«سيكون أمراً سيئاً لها».

وراحت فتنة، التي أصغت بانتباه إلى ذلك الحوار، تصفق جناحيها بفرح ورضا. وارتسم على وجهها سيماء رهيبة. ثم اقتربت بحذر من إخوانها، كل بدوره. وهمست في أذن كل منهم بضع كلمات. وارتفعت في الهواء.

وقالت: «صمتاً يا إخوتي. لم يعد عدوكم بعيداً».

وأخلدت الأشياء كلها إلى الصمت. وبخلاف خرير مياه «أوريا» وقرع الأجراس الحزين، لم يسمع صوت يكسر صمت تلك الليلة المقيتة.

Twitter: @ketab_n

5

أنجزت الـ«أرغويدونا» نصف مهمتها. وما إن عاد أنطونيو إلى المنزل، حتى رسمت خطاً أزرق في الأفق. ثم اختفت في غابة البلوط والكستناء التي غرقت في الصمت والظلام. وطفقت تحلّق بلا هوادة، كأنها نحلة مجتهدة تتنقل من زهرة إلى أخرى، ممتصّة الرحيق من بتلاتها. ورسمت دوائر مضيئة حول أغصان الأشجار. وحوّمت هنيهة فوق قمة صلبة لشجرة كستناء، فأضاء نورها الشاحب وجهاً بشرياً. وفي تلك اللحظة، مزّقت صرخة حادة الهواء. وأُغلقت عينا الوجه البشري. واخترق سهم ذلك الرأس، عابراً من جهة إلى الأخرى. وسُمِع صريف أسنان، تلاه صوت سقوط ثقيل. وأخيراً، دوّت ضحكة معدنية لها صوت أجش. وتوقف الضوء الشاحب، الذي كان ينتقل من شجرة إلى أخرى كأنه نحلة مجتهدة، في موضع بين شجرتين عملاقتين. وفي هذه المرّة، أنار الضوء وجهين بشريين شديدي التشابه. ومزّق الليل صرختان حادتان. وأغمض الوجهان الأعين البرّاقة فيهما. واخترق سهمان هذين الرأسين. وسمُع منهما صريف أسنان، ثم صوت سقوط ثقيل. وتلا ذلك ضحكتان شريرتان مجلجلتان.

Twitter: @ketab_n

وردّد الفضاء الكلمات التالية: «ارقدوا بسلام يا إخوتي. أنها المرّة الأولى التي ترغب فيها فتنة بأمر كهذا».

وبعدها، سُمع خفق جناحي عصفور رائع عابراً فوق «أوريا مندي». ولمس اللسان الصخري عند «إيغويلدو». وحلّق فوق مياه البحر المضطربة. واختفى عند نقطة قاتمة في الأفق البعيد.

وكذلك تقدّم الضوء الصغير، الذي لم يكن ليهدأ كأنه نحلة مجتهدة تتنقل بين الأزهار، ليستقر فوق ورقة في شجرة الجوز تشرف على نبع شفّاف المياه.

Twitter: @ketab_n

6

في منزل عائلة الأزكوي، سُمعت طقطقة موقد يشتعل بنيران من حطب شجر الزان. وصدر منه دفء وثير تسرّب إلى حظيرة المنزل التي تفصلها عنه سقيفة.

وتضمّ هذه معلفاً، تليه ممرات خشب خُصّصت لنوم الماشية. وتدلّت من جدران المنزل حزم من السهام، ومجموعة من الأقواس اللامعة. وظهرت فيها رفوف كدّست عليها السيوف والفؤوس وأنواع من الأسلحة، وكذلك المعازق وأصص النباتات المُعدّة للزرع. وبكلمة أخرى، فقد جمع المنزل الأسلحة المتصلة بشؤون الحرب وما يتصل بالزراعة التي ترمز للسلام. وتلا خوان الأزكوي الابتهالات التي ردّدتها وراءه جوقة صغيرة تألفت من بناته اللواتي لم يتوقفن عن العمل. ولكنهن استرقن النظر، بين الفينة والفينة، إلى أخيهن أنطونيو الذي علته سيماء الجد والحزن إذ طفِق يردّد الصلوات بصورة آلية.

وأطلّت ظلال الماشية برؤوسها وقرونها، إذ أمكن رؤيتها عبر الخلاء الذي يفصل المطبخ وشقوقه الخشبية عن أمكنة مبيتها.

Twitter: @ketab_n

وبدت كأنها تُنقّل عيونها الواسعة بين أنطونيو وأختيه، كمن يسعى للحصول على تفسير للمشهد العائلي المليء بالحزن. وتحرّكت الأبقار، كأنها تدمدم مستجيبة لابتهالات العائلة الأبوية، فيما ظلّت الأجراس المعلّقة برقابها ساكنة وخرساء. وأضيف إلى المشهد العائلي الرزين، لمسة حزن حنون أسبغه هديل حمامة. إنه مشهد بسيط وحنون. إنه منحة من الحب الراسخ. وعلى أي حال، احتاج المشهد العائلي كائناً ليكتمل، وذلك كائن فائق الأهمية. إذ لا تقف أمّ بين فتيات العائلة. وغاب عن تلك المجموعة الكائن الذي يمثّل كل نكران الذات، وكل الحب الذي هو انبثاق من حب الرب. فلا شيء يقارب الحب السماوي سوى حب الأم. وظلّ المقعد الذي اعتادت الجلوس عليه شاغراً لا يجرؤ أحد على شغله، لأنه مقدّس. ولسوف يُحترم ذلك من جيل إلى جيل. دقّت الساعة الثامنة. وأنهى الأب صلاته. وبارك عائلته. واتجه ببطء إلى غرفة نومه. وما إن غادر العجوز، حتى التفت الأخوات حول أخيهن الشاب،الذي احتضن بحزن الحمامة الهادلة.

وطوّقت إحدى الأختين عنق أخيها بذراعيها. واستدارت أخرى خلف مقعده، وقبلّت جبهته. ووقفت ثالثة أمامه عاقدة ذراعيها تراقبه بهدوء. ووضعت رابعة يدها تحت ذقنه، كي يرفع

Twitter: @ketab_n

وجهه. يا للمجموعة الرائعة، التي تليق بريشة مايكل أنجلو!

وسألن بود: «من أين يجيء كل هذا الحزن؟ أولَم تستقبلك غابرييلا ليله البارحة؟ هل نقلت لك أخباراً سيئة؟ هل ثمة عقبة تنغص سعادتك؟ أجبنا أيها الأخ الحبيب».

«ليلة أمس، رأيت أمي، عند مزرعة الكستناء قرب بوابة أريكات»، أجابهن أنطونيو. وعلت سيماءهن دهشة المفاجأة. وشرعن ينتحبن. وشحبت وجوههن وانسكبت عليها سيول من الدموع. وسألت ألسنتهن:

«أرأيت أمنا؟».

«نعم، يا أخواتي. ولقد اعترضت طريقي فلم أعد قادراً على الذهاب إلى حيث تنتظرني حبيبتي».

وصرخن بصوت واحد: «أيُعقل ذلك؟».

«نعم، استمعن إلى ما حصل. تعلمون أن حب الأم لأبنائها لا يقتصر على حياتها، بل يستمر بعد وفاتها. وتطوّقهم بالحب من العالم الآخر. وترعاهم بحنو وإخلاص، فلا يصيبهم شرّ».

«هذا صحيح»، أجابت الفتيات. واقتربن من أخيهن.

«وتعلمن أن أمنا كانت الأفضل بين الأمهات كلهن».

«هذا صحيح تماماً».

Twitter: @ketab_n

«كنت أسير خفيفاً وطروباً، لأن السلام المكين حلّ أخيراً بين عائلة الألزاتي وعائلتنا. وعندما وصلت إلى الغابة، ظهرت لي الـ«أرغويدونا». فحييتها بلطف، مقدّراً أنها روح أمنا الحبيبة. ورفضت الـ«أرغويدونا» أن تزيح من طريقي. وتركت الممر. وانحرفت إلى طريق جانبي في الغابة. فاستدارت الـ«أرغويدونا» وصممت على الوقوف في وجهي!».

قالت الأخت الصغرى: «لقد كان ثمة شرّ يتربص بك، يا أخي».

«ربما كان الأمر كذلك يا جوانا. ربما».

«بل هذا مؤكد. عندما تعترض الـ أرغويدونا طريق أحدهم، فإنها تنذره من شر سيصيبه إن مضى في طريقه».

«لقد أطعت أوامرها. وعدت أدراجي إلى المنزل. وتبعني الضوء. ولم يتركني إلا عندما عبرت وهدة غوابيرو».

«لا تشك يا أنطونيو بأن أمنا قد أنقذتك من شرّ مستطير».

تمتم أنطونيو «أو لعلها رغبت في خلاصي من مشاعر كبرى».

صرخن بصوت واحد: «بالرب عليك! هل تظن حقاً أن...».

«أعرف أنني أحب غابرييلا، يا أخواتي. وأعلم أيضاً أنني منحوس».

Twitter: @ketab_n

«يا أخي. لا تنتقص من قدر من ستصبح أختنا قريباً. لقد أقسمت غابرييلا على حبك. وككل بنات غوييزكوا، ستحافظ غابرييلا على قسمها».

فرد أنطونيو: «سأعلم جلية الأمر الليلة». ثم نهض. «سأذهب إلى عائلة الألزاتي. وسأعبر مرج الكستناء. وسأرى غابرييلا. تصبحن على خير، يا أخواتي. تصبحن على خير».

«ليحرسك الرب في مسيرك. ولتحمك أمنا الطيبة، يا أخي»، ردّت الآنسات باحترام.

بعد ساعة، ردّد أنطونيو الأزكوي صرخة الـ«ليكايو» الحادة، فردّدت الجبال أصداءها.

Twitter: @ketab_n

7

وشرع أنطونيو في هبوط الجبال. ودخل الغابة. لم تكن الساعات الأخيرة من الثاني من نوفمبر قد انقضت. وتجلببت غابة الكستناء بظلام دامس وكثيف. وران عليها صمت كئيب يتناقض مع حالها في الليلة السابقة.

لم يصدر صوت عن الأوراق المتكاثفة على الأغصان الوارفة للغابة الكثّة. وتسمرّت أشجارها في أمكنتها. وحتى لم يسمع خرير نهر «أوريا». وبدت مياهه وكأنها خائرة القوى. وسكنت الألسنة البرونزية للأجراس في تجاويفها المُقعّرة. ولم تهبّ نسمة لتحرك الأوراق الجافة على الأرض.

وفجأة رأى أنطونيو، كما في الليلة السابقة، ضوءاً شاحباً يمزج الأزرق والأبيض، يطل عبر الأشجار التي كست الطحالب جذوعها. ولكن، هذه المرّة، سار الضوء خلفه. التفت أنطونيو. ولاحظ أن الـ«أرغويدونا» تسير خلفه بنحو ياردتين.

قال أنطونيو وقد أومأ برأسه الحاسر مُحيياً:«عمت مساء، يا أمي، عمت مساء، لقد صلينا هذه الليلة طويلاً لراحة نفسك». واهتز الضوء بجلاء. ولبرهة، زاد من توهّجه.

Twitter: @ketab_n

«سيري أمامي يا أمي. يرغب ابنك أن تقوديه بعد مماتك، عبر الممر المظلم للحياة، بالطريقة عينها التي أرشدته بها خلال حياتك».

وارتعش الضوء أكثر من أي وقت مضى. واقترب من الشاب، لكنه بقي خلفه. واستمر أنطونيو في السير، تتبعه الـ«أرغويدونا». وعندما وصل إلى البقعة الأشد حلكة في الغابة، لاحظ أن الضوء الشاحب الذي أنار طريقه، أخذّ في التلاشي.

فاستدار بسرعة. وخشي أن يختفي الضوء كلياً، قبل أن يعطيه تحية وداع حنون. وتفاجأ برؤية مشهد مُرعب.

شاهد ثلاثة رؤوس طرية، يغطيها شعر مجعد، وتبرز منها عيون فاقدة لبريق الحياة. واحتلت الرؤوس فرجة صغيرة، مكوّنة مثلثاً تاماً. وكتب على جبهة أحدها، بحروف حمر، كلمة «التفاخر»، وعلى الثانية «الغضب»، والثالثة «الحسد». واخترقت سهام قصيرة تلك الجباه. وكست وجوهها تعابير مرعبة من الألم والاهتياج، جعلت عضلاتها تتقلّص كلياً.

وقف الضوء الشاحب في منتصف مثلث الرؤوس. وعندها، زمّ «التفاخر» فمه الشرير، ثم نفخ باتجاه الضوء. وطارت الـ«أرغويدونا» بسرعة حتى لامست شفتي الرأس الذي كُتب على جبهته «الغضب». وإذا بالرأس الثاني ينفخها أيضاً. وانقذف الضوء الشاحب الذي لا لون فيه باتجاه الرأس الثالث

Twitter: @ketab_n

«الحسد». وقد حدث ذلك بسرعة شديدة، وشرع الضوء في الخفوت وخالط حركاته بطء ظاهر. وأخذ الوهج الأزرق في الخبو تدريجياً.

وصارت الرؤوس، من دون أن تغير تعابيرها المتألمة وملامحها المتقلصة، تضحك بصمت وتوتر. وارتسم تناقض يثير الذعر بين ضحكها وملامح الألم البادية على وجوهها الغائرة. وخفت الضوء أكثر. وصارت حركته بطيئة. وتقلص توهجه.

وصار واضحاً أن الـ«أرغويدونا» تُعاني بحدّة. لقد كانت تطلب المساعدة، بلغتها الغامضة. وبدا جلياً أنها في صراع مع الرؤوس الثلاثة، التي ضاعفت من نفخاتها، كما زاد استمتاعها بعذاب ذلك الضوء الضئيل. وكاد أن ينطفئ. واستعر مرح الرؤوس الثلاثة بشكل مرعب.

وصرخ أنطونيو بنبرات يأس: «أمي. يا أمي العزيزة». وطارت قدماه صوب المثلث المفتوح. وفجأة، التفتت الرؤوس الثلاثة صوب الشاب الغرّ. وقدحت عيونها الزجاجية نظرات غضب. واهتز الضوء متقداً. وصار شكله أكثر وضوحاً. واستطاع أن يغادر المثلث الذي صنعته الرؤوس الثلاثة. وحطّ على قدم أنطونيو، مُشعاً بالضياء.

وصدر صوت يشبه ذلك الذي ستصدره الطبيعة عندما

Twitter: @ketab_n

تفنى. واهتزّت الجبال من أساساتها المكينة. وتوقف «أوريا» عن الجريان. وارتعدت الأجراس مُصدرة قرعاً كئيباً. وتسمرت أمواج بحر «كانتابرا» في أمكنتها وأوقفت مسارها. واختفت الرؤوس الثلاثة. وأخذت الـ«أرغويدونا» في الحركة بزهو. وأظهرت حبورها بأن صدرت منها أشعة خفيفة منيرة.

منذ تلك الليلة التي لا تُنسى، لم تُشاهد «الفتنة» في أرجاء منطقة «غويبيزكوا».

ومنذ تلك الليلة أيضاً، هجر الغضب والحسد والتفاخر، ترابها النبيل.

وعند فجر اليوم التالي، غادر أنطونيو وغابرييلا منزل الألزاتي معاً باتجاه النبع الذي تشرف عليه شجرة الجوز. وإذ اقترب العاشقان ليشربا من مياهه، لاحظا شيئاً غير مألوف. إذ مازج مياه النبع الشفّافة لون أحمر. لقد اختلط الشراب الذي حضّرته «ساحرة باغولاغا» مع مياه النبع.

وعلى مرّ الأيـام، وكلما عبر أنطونيو مرج الكستناء عند بوابة «أريكارت»، ترافقه الـ«أرغويدونا»، التي تتحرك بعنفوان وببهجة كأنها نحلة مجتهدة تتنقل من زهرة إلى زهرة، كي تحرسه بإخلاص وعناية. ويصدر منها ضوء منير. وعندها يقول وريث آل الأزكوي بمحبة:

Twitter: @ketab_n

«يا أمي العزيزة، لقد صلّت غابرييلا الليلة الماضية كي تنعم روحك براحة أبدية. أنا وغابرييلا نحبك بحنو. ولسوف نعلم أطفالنا أن يحبوك، حتى أكثر مما نفعل».

Twitter: @ketab_n

مايتاغاري[1] 1
إيتوريوز[2] 2

ران صمت عميق على منزل في إحدى ضواحي «أويارزون». وانتهى رأس العائلة بيدرو الإيتوريوزي، الشيخ الجبلي الصلب العود، من عشائه. وأعدّت زوجته التي تصغره بأعوام كثيرة، كأس نبيذ دافئ. وانتظرت أن ينادبها. وبإيماءة من رأس رب الأسرة، وضعت الزوجة في يده كأساً فضية، وقد ارتسمت على وجهها ملامح حب رقيق واحترام عميق.

ووضعت على الطاولة سلّة مليئة بفواكه فاخرة. وجلست إلى دولاب مغزلها عند الطرف الآخر من الغرفة. وأخذت تغزل أرقّ الخيوط، التي ستصبح مناديل ومناشف معطرة، كتلك التي تملأ بيوت الباسكيين. وفي زاوية من المطبخ، تحادثت فتاتان رائعتا الجمال، بصوت خفيض، مع يافع لم يتجاوز الخامسة عشرة وقف حاسر الرأس. وقرب الموقد، امتد مقعد طويل تزينه أزرار نحاسية، تحت السقف الواسع. وأضيء المشهد العائلي من مصباح معلق بحلقة نحاسية يتوهج فيه فتيل بنار تتغذى من زيت الراتنج الصنوبري، إضافة إلى النور الصادر من المدفأة. وقطع

(1) جنية ماء تسكن البحيرات (المؤلفة).

(2) ماء النبع البارد (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

رب العائلة تفاحة جميلة إلى نصفين أعطى أحدهما إلى زوجته. ثم شرب ثلثي كأس النبيذ الدافئ. ودعا زوجته إلى مشاركته شرب ما تبقى من شراب في الكأس. فتجاوبت مع دعوته بصمت. ثم حسر الشيخ الجبلي عن رأسه المجلّل بالمشيب، فنهضت العائلة وقوفاً استجابة لتلك الإشارة. ثم رسم علامة الصليب. ودمدم صلاة شاركه فيها الحضور. وبعدها أخلد إلى الراحة قرب الموقد.

وجمعت إحدى الفتاتين بقايا العشاء وطوت بعناية الشرشف الأبيض. والتأم شمل العائلة حول المدفأة. فانغمست الزوجة في الحياكة. وجدلت الفتاتان الخيوط على بكرات خشبية. وانهمك الفتى في شحذ سكين حطّاب.

وإذ تمدد بيدرو الإيتوريوزي على المقعد الخشبي مستنداً إلى مرفقيه، بدا شارد الفكر. وتركّزت العيون على سيماء الشيخ الذي شرعت عيناه تغفوان تدريجياً. وأرسلت الزوجة إشارة صامتة. فتوقفت الفتيات عن الحديث. وخفض الفتى صوته مدندناً أغنية بسيطة بلحن رتيب. وتابعت الإناث الثلاث اللحن بحركات من أيديهن. وأثّرت الموسيقى على الكهل بقوة. فسقط رأسه على صدره في إغفاءة عميقة.

ومن الباب المشقوق، دخلت حزم من ضوء القمر الذي أنار الجبال العالية وأشجارها الوارفة. وسُمعت أمواج النهر الجبلي

Twitter: @ketab_n

التي أضافت إلى المشهد الصامت جمالاً فريداً. وظلّت الأشياء مستقرة على هذا النحو لوقت غير قصير. وفجأة، استيقظ الشيخ وقال: «قل لي يا أنطونيو، ما الذي سمعته في الجبل اليوم؟».

وتوقف الفتى عن شحذ السكين. ورماه. وأجاب باحترام:

«سمعت يا أبي أن المعركة كانت دامية حقاً».

«أعلمت من انتصر؟».

«لم ينم ذلك إلى علمي، يا أبي».

ظل الكهل صامتاً. وظهر شحوب الأموات على الفتاة الكبيرة. وسقطت من يدها جديلة الخيوط التي كانت تهمّ بلفها. وحدّقت في أخيها وكأنها تريد أن تسبر أغواره بنظراتها.

لكن الفتى ظلّ منتظراً إذناً من أبيه كي يواصل الحديث.

قال الأب: «في الغد، ومع ظهور الضياء، سِر صوب الحدود. ولا تعُد قبل أن تعرف المُحارب المنتصر».

وأجاب الابن: «حاضر يا أبي».

«إذن، اقترب مني أكثر يا أنطونيو. وأصغِ».

سأل الفتى: «ما الذي تريدني أن أفعله؟». ثم انحنى مُقرّباً أذنه كي يسمع ما الذي يريد والده أن يقوله سراً.

«لقد انضمّ غيل، أخي وابني، إليهم. في الغد، اذهب إلى المعسكر. ابحث. فتّش. واعثر عليه. وعُدّ لتخبرني أنك شاهدته، أو أنك دفنته بطريقة لائقة».

Twitter: @ketab_n

«سمعاً وطاعة يا أبي».

«إذا عثرت عليه حيّاً، أخبره أنني أمنعه - أفهمت- أمنعه من استعمال سلاحه ضد عائلة الأبرايدي، طالما هم في قتال مع العدو».

«هل يسري ذلك المنع عليّ أيضاً؟».

«نعم، يا بني. يجب أن تُنحى جانباً الخلافات والمرارات الشخصية، على رغم تغلغلها في دواخلنا، عندما تكون البلاد في خطر. ولتنزل اللعنة على من يفعل عكس ذلك».

نهض الشيخ. وقبّل جِباه الإناث الثلاث. وبارك أنطونيو. وغادر المطبخ بهدوء.

وبعد نصف ساعة، غرق في نوم عميق جدير برجل عادل.

وما إن غادر بيدرو الإيتوريوزي حتى تحلّقت النسوة حول أنطونيو.

قالت الأم بتسليم ملائكي: «لقد أسرّ إليك والدك بأمور لم يرد أن أعرفها، عليك بطاعته، فكلمة الأب من مشيئة الرب».

أجاب الفتى مُقبّلاً أمه: «ذلك ما علمتني إياه دوماً، يا أمي».

«هذا صحيح. فبعد الأب، يتوجب على الأم أن تعطي النصيحة والإرشاد. فاجلس واسمعني».

وجلس الجمع. وتوسّطت الأم ابنتيها اللتين أخفقت إحداهما

Twitter: @ketab_n

في مداراة غضبها الشديد، فيما راقبتها أختها بمودّة. وجلس أنطونيو قبالة أمه كتالينا. وشخص نحوها بعينيه السوداوين الواسعتين. وأخذت زوجة الإيتوريوزي تداعب خصلات شعر ابنها.

وقالت: «أنطونيو. يحارب أخوك على الجبهة. وتعلم جيداً أنه ناري لطباع. إذا وجدته حيّاً، قل له أن ينهض بواجباته بشجاعة. ويعني ذلك أيضاً أن عليه تجنّب تعريض حياته للخطر بطريقة غير منطقية وغير مدروسة».

ورد أنطونيو اليافع: «سأخبره بذلك».

وتابعت كتالينا: «قل له أن ينس مشكلاتنا الخاصة. وألا يتذكر سوى أنه ينتمي إلى منطقة غويبيزكوا، وأن أعداءه هم أعداء الوطن».

وقاطعت إحدى الفتاتين الحديث قائلة: «يا أخي، لا تنسَ هذه النصائح الحكيمة»، وبدت في غمرة حزن عميق.

«ما الذي تعرفينه عن تلك الأمور؟». سألها أنطونيو مُلقياً عليها نظرات متفحصّة.

واحمرّت وجنتا الفتاة. وقالت: «صحيح، إنني لا أعرف سوى القليل عنها، ومع ذلك، أحسّ بأن تلك النصائح الحكيمة تستند إلى أسباب وجيهة».

Twitter: @ketab_n

«يا أمي. لقد نصحتني بالأمور عينها التي أمرني بها أبي».

وردّت كتالينا: «ليتمجّد الرب. لم يتبق شيء لأنصحك به، سوى ألا تتباطأ في هذه الرحلة. أعطيك بركاتي. وليحم الرب إخوانك! هيا أيتها الفتاتان، فلنخلد إلى النوم».

ونهضوا جميعاً. وغادروا المطبخ. وظل المنزل وأشياؤه تحت حماية قوانين البلاد، وتحت حراسة كلب الدرواس الذي تمدّد قرب المدفأة.

Twitter: @ketab_n

2
ساحرة «زالدن»

وعندما أزف منتصف الليل، فُتِح باب البيت بهدوء. ودلفت امرأة عجوز إلى المطبخ.

ورفع كلب الدرواس رأسه. وندّ منه هرير. واقترب من المرأة. ثم عاد مُتكاسلاً إلى نومه. ورمت المرأة أغصاناً جافة في المدفأة. فأضاء نورها الغرفة الواسعة. وبعدها، قلّدت صوت البومة. ثم سُمع صوت خطى خفيفة تهبط من الطابق الأول في المنزل. ودخلت دومينكا، الابنة الصغرى لبيدرو الإيتوريوزي. ووقفت على مسافة من العجوز. ولكنها تأملت تلك الغريبة بوجل واحترام.

قالت العجوز: «اقتربي يا دومينكا. اجلسي بجانبي».

وأطاعت الفتاة. وجلست على المقعد الخشبي الطويل الذي شغلته محدّثتها أيضاً. ونهض كلب الدرواس، ليجلس عند قدمي دومينكا. وأدخل رأسه بذكاء بين ركبتيها.

وتحت ضوء الموقد، اتّخذت تلك المجموعة شيئاً من الملامح الغريبة لممارسي السحر. فقد ظهر تناقض هائل بين العجوز

Twitter: @ketab_n

بحواجبها البنيّة المُجعّدة وعينيها القلقتين وشعرها الأحمر المتشابك وأنفها المُسنّن الطويل، ودومنيكا الفتاة المتوردة الخدين والعينين الحلوتين اللوزيتين والخصر النحيل والابتسامة الحييّة. وزيادة في التناقض، قرّبت العجوز وجهها من وجه الفتاة الحلوة، فيما راقب كلب الدرواس المشهد مُركّزاً عينيه على حركات العجوز.

سألت العجوز بصوت خفيض: «هل أرسلت بطلبي يا دومنيكا؟ ها قد جئت. ما الذي تريدينه مني؟».

ردّت الفتاة بصوت مضطرب: «أردت أن أعرف من الذي انتصر في المعركة على الحدود».

حملقت الساحرة بدومنيكا، وسألتها: «ألا تريدين معرفة شيء آخر؟».

ردت الفتاة: «لا. لا شيء آخر». ثم خفضت عينيها.

«حسناً جداً. افتحي تلك النافذة التي تطل على اتجاه المعسكر».

«إنها مفتوحة»، قالت الفتاة وسحبت النافذة إلى الخلف.

«انظري إلى السماء».

«إني أنظر».

«ما الذي ترينه باتجاه الغرب؟».

Twitter: @ketab_n

«أرى غيمة رمادية».

«ما هو شكلها؟».

«تبدو لي وكأنها هيكل عظمي لحصان عملاق».

«ما الذي ترينه أيضاً؟».

«أرى أنها انقسمت شطرين».

«أي الشطرين أكبر؟».

«جهة الرأس».

أجابت الساحرة: «لقد هُزِمَ الفرنسيون والنافاريون».

وأطلقت دومنيكا صرخة فرح. واقتربت من الساحرة سائلة: «هل ما أخبرتني به مؤكد؟».

«كمثل تأكدي من وقوفي هنا. أترغبين في معرفة المزيد؟».

أجابت الفتاة: «أرغب بشدة في معرفة مصير أخي».

«سأشبع فضولك. اقتربي من تلك القِدر».

ونفذت دومنيكا بما أُمِرت به.

«ضعيه على النار. واذهبي إلى الحقل. واحضري لي جذوراً من نبتة فيرتود».

غادرت الفتاة المنزل لتبحث عن النبتة. وتبعها كلب الدرواس. وسحبت الشمطاء الماكرة جعبة جلد من جيبها. وأخرجت منها بروية مجموعة من الخِرَق. وعثرت على يد

Twitter: @ketab_n

يُسرى لطفل[1]، وقد حُفِظَت بعناية. والتفت خصلات شعر شقراء ناعمة حول تلك اليد.

وأمسكت بقارورة فخار. وسكبت بضع قطرات من سائل أحمر في القِدر الذي صار ساخناً مُذ وُضع فوق النار. وانتظرت عودة دومنيكا. ولم يطل انتظارها. إذ عادت الفتاة حاملة حزمة من الجذور. واتجهت صوب الساحرة، على رغم محاولة كلب الدرواس سحبها للخلف من ثوبها.

«اهدأ يا مور. اهدأ. يبدو أنك تُحب أن تتسلى تحت ضوء القمر». قالت الفتاة للكلب. ثم استدارت إلى المرأة وأعطتها الجذور.

سألت الساحرة في أثناء تسلمها الحزمة من دومنيكا: «هل جمعتها من تحت ظِل؟».

«نعم، من تحت ظل شجرة جوز».

(1) اليد اليُسرى لطفل: ثمة اعتقاد شائع بين سكان الجبال في الباسك، أن قطع اليد اليُسرى لطفل أثناء نومه، ولفّها في خصلات من شعره، تصبح تميمة ثمينة، إذ تَنجي حاملها من الشرور كلها. وكذلك من المستطاع استعمالها لصنع أشربة سحرية من أنواع مختلفة. ولا يزال بعض سكان جبال الرونكال يعتقدون بهذه الفكرة الغيبية. وفي المقابل، لا تتوافر شواهد على ممارسة هذا التشويه الدنيء، إلا عند صنعة الخدع عند الغجر (ويسمونهم «أغو»)، وبعض اليهود في عصور غابرة. وكذلك تتوافر الدلائل على صدور قوانين ضد هذه الممارسة البربرية. وساد أيضاً اعتقاد شعبي بأن دم الطفل بإمكانه أن يجدّد حيوية الأجساد الضعيفة للنساء (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

«هذا حسن. اجلسي وراقبي القِدر بكل انتباه».

وقشّرت الساحرة الجذور بعناية. ورمتها في القِدر التي أخذت مياهها في الغليان. وبعد لحظات، تصاعد بخار أزرق، ملقياً ظلالاً غريبة على الغرفة.

وسألت الساحرة: «ماذا ترين؟».

«أرى أخي مضرّجاً بالدماء ونائماً بهدوء. أرى الكثير من الجثث في ساحة المعركة. و...يا ويلي». صرخت الفتاة فجأة.

«ماذا ترين أيضاً؟».

«أرى خوان الأبريدي نائماً على مسافة غير بعيدة من أخي. ثمة الكثير من النيران في المعسكر، وكذلك الحُرّاس».

«انظري صوب أخيك. ماذا يفعل؟».

«يا رب السماوات»، صرخت دومنيكا وقد شحب وجهها بشدّة.

وسألتها الساحرة: «ما الذي يجري؟».

«ينهض أخي. يستل سيفه. ويتجه صوب خوان الأبريدي».

وبصوت مكتئب، قالت الساحرة: «سيتقاتل أخوك وخوان. وستسيل دماء... ماذا ترين أيضاً؟».

«لا شيء أكثر» أجابت دومنيكا مرتعشة.

وتابعت العجوز: «أديري وجهك صوب الجدار. وراقبي بانتباه الظلال التي سترتسم عليه».

Twitter: @ketab_n

أطاعت دومنيكا. وأطلقت صرخة رعب. وغطّت وجهها بيديها.

قالت الفتاة باهتياج عظيم: «من المستحيل علي أن أنظر».

«ارفعي يديك عن وجهك. وأخبريني بما ترين. لا وقت لدي لسماع بكائك ونحيبك».

«أرى خوان الأبريدي محمولاً بين يدي امرأة».

«أتعرفين تلك المرأة؟».

«لا أرى وجهها».

«انظري بانتباه إلى الأبريدي، كيف يبدو لونه؟».

«إنه شاحب... شاحب جداً».

«هل اكتفيت؟». قالت الساحرة. وارتسمت على وجهها المتغضن ابتسامة شريرة.

صرخت دومنيكا باكية: «يا لأختي المسكينة».

«لقد أراق أخوك دم حبيب أختك إينز. هل تريدين معرفة المزيد عن أمور علاقات الحب هذه؟».

وصدر عن كلب الدرواس هرير. وأسند قائمتيه على كتفي الفتاة. وأخذ يلعق وجهها.

دمدمت الفتاة: «ليساعدني الرب الرحيم».

«عليك أن تُقرّري بسرعة. ثمة من يحتاج إلي خلال الساعتين المقبلتين».

Twitter: @ketab_n

تردّدت الفتاة قليلاً. وتابع الكلب لعق وجهها، ملقياً بنظرات وحشية على العجوز.

قالت الساحرة: «ياه! يبدو أنك ضعيفة القلب». ومدّت يديها إلى جعبتها. وحملتها. وهمّت بالمغادرة.

«انتظري! البثي برهة أخرى». صرخت دومنيكا. وشدّت ثوب الساحرة لتحتجزها.

«لا أستطيع البقاء في هذا المنزل»، قالت العجوز مُلقية نظرات استنكار على الكلب.

«حسناً. سأحسم أمري».

وصدر عن الكلب هرير مُستسلم. وترك الفتاة. وكوّر نفسه في إحدى زوايا الغرفة.

«بما أنك حسمت أنك ستفعلين ما تُأمرين، فخُذي هذه الجعبة. وانظري ثانية إلى الشعلة الزرقاء».

«سأفعل»، ردّت دومنيكا. وأمسكت بالجعبة، باذلة جهداً عظيماً كي تتغلب على خوفها.

«افتحي الجعبة. وضعي محتوياتها الواحدة تلو الأخرى، في القِدر».

وأطاعت دومنيكا. ووصلت إلى يد الطفل اليُسرى، التي انفكت عنها خصلات الشعر. وأحسّت بذعر عظيم. فرمت

Twitter: @ketab_n

بالجعبة ومحتوياتها كلها في النار المشتعلة في الموقد.

وهزّ دوي ضخم البيت. ولم تستطع الفتاة الحراك، إذ خانتها ركبتاها. وهوت إلى الأرض، مُطلقة صرخة مخيفة. وشاهدت «ساحرة زالدن» تقفز من النافذة، وقد تحوّلت إلى وطواط ضخم متوحش.

وخبت النار ببطء. وغرقت الغرفة في ظلام دامس.

Twitter: @ketab_n

3
الاعتراف

لاحت تباشير الفجر. فنهض أنطونيو. وارتدى ثيابه بسرعة. وهمّ بمغادرة المنزل. ووجد إينز عند الباب، تتنسم هواء الفجر المنعش بتوتر.

قال: «صباح الخير يا إينز». وقبّلها على جبهتها، ثم سألها: «لماذا استيقظتِ مُبكرة؟».

«رغبت في رؤيتك قبل أن تُغادر المنزل».

«أشكرك يا إينز. أعلم كم تحبينني. لم لم ترافقك دومنيكا؟».

«أعتقد أنها نائمة. لكن اسمع يا أنطونيو. جئتك وحدي كي أُسرّ لك أمراً. أعلم أنك ما زلت يافعاً. ولكني أعرف أن نصائح رجل في سنّك تكون أكثر حكمة وعدلاً مما قد يصدر من امرأة في عمري».

نظر أنطونيو إلى أخته التي بدت شاحبة في ضوء الفجر، وسألها بعطف: «أأنت مريضة يا أختي؟».

Twitter: @ketab_n

«نعم يا أنطونيو. عليلة بالجسد، وأكثر منه بالروح».

«يا إينز المسكينة! ماذا أستطيع أن أفعل لأُساعدك. تكلمي. تعرفين جيداً مدى محبتي لكِ».

ورفعت عينيها. وشرعت تقلّب نظرها بأخيها، وأحست بأنها جُرِحَت بعمق.

سألها: «أتشكين بمحبتي؟ إن شكّكت بمحبتي، فسيكون ذلك جرحاً كبيراً لي».

وردت إينز بود: «مثل ذلك الشكّ بعيد مني تماماً. سأأتمنك على أمر لا يعلمه غيل ولا أبي».

ردّ أنطونيو: «سيريحنيْ ذلك كثيراً». وجلس بالقرب منها.

«تمر الساعات بسرعة. وينتظرك سفر طويل، يا أخي. أصغِ إليّ جيداً. وتعاطف معي».

«سأصغي إليك بانتباه. تكلمي يا إينز. تكلمي».

وأخذت إينز يد أنطونيو بين يديها. وقصّت عليه قصتها.

«أنت تعرف جيداً العداء المستحكم بين عائلتنا وعائلة الأبريدي. ويشكّل هذا العداء السبب الأساسي لتعاستي».

سألها بصوت مذعور: «ولِمَ ذلك؟».

«إليك السبب يا أخي. لقد قابلت خوان. وعندما شاهدته للمرة الأولى، فررت من أمامه».

Twitter: @ketab_n

«حسناً فعلت يا أختي. لا يمكن غفران الجرح الذي سبّبه أبوه لأبينا».

«اسمعني حتى النهاية. منذ ذلك اليوم لم يتوقف عن ملاحقتي. إذا ذهبت إلى أويارزون للصلاة في الكنيسة بصحبة أمي، يركع قريباً منا خلال القُدّاس. عندما نترك المذبح، نجده في السقيفة. وعندما نعود إلى المنزل، يسير وراءنا ليتابعنا من بُعد».

«من دون أن يوجّه كلمة لك؟».

«لم يجرؤ على فعل ذلك. عندما أقترب من نافذتي، أستطيع أن أراه واقفاً على قمة الجبل، مُثبّتاً ناظريه على منزلنا وقد تدلت جعبة السهام من كتفه».

«أيُصادف أنه يُخطّط لشيء شرير ضدنا؟».

ردّت إينز بسرعة: «كلا! جاء الربيع. وفي كل صباح، عندما أفتح نافذتي، أجد طوقاً من الأزهار عند إفريزها. وفي البداية، اعتدت أن أرمي بالزهور على الأرض، معتقدة أنه مختبئ وراء الأشجار مراقباً ما أفعله. لكني أجده في اليوم التالي، إما في الغابة أو عند النبع، وقد غلب الحزن العميق على نظراته. ولم أتمالك نفسي من العطف عليه».

وسحب أنطونيو يده من يديها. واتخذ هيئة الجدّ.

«أصغ إلي يا أخي، ولو بداع الشفقة. لقد أسَرَت تصرفاته

Twitter: @ketab_n

المحترمة والمُحافظة انتباهي بطريقة غير عادية. وأفكر فيه أكثر مما ينبغي. وعلى رغم الجهد الهائل الذي بذلته لإزاحة صورته من خيالي، إلا أنني لم أستطع ذلك. وعند الغروب، في أثناء عودتي من زيارة قبر ابن عمي المسكين لوتشيا (الذي أحببناه جميعاً)، هطل الثلج بكثافة. وسد الطريق. وعندما وصلت إلى التقاطع قرب النبع، شاهدت شكلاً واقفاً في منتصف الطريق. وفي الظلام، لمحت عينيه ملتهبتين تركزان عليّ. وتجمّدت في مكاني. ولم استطع الصراخ. وأصدر الشكل عواء مخيفاً. وألقى نفسه باتجاهي».

«لعله خوان؟». سأل أنطونيو وانتصب واقفاً على قدميه. «يا لبؤسه إذن».

«كلا يا أخي، لم يكنه. ذاك كان الذئب الشرس الذي أرعب المنطقة كلها».

«أهو ذاك الذي وُجِد مقتولاً قرب النبع؟».

قال: «يا لأختي المسكينة!». وعاود الإمساك بيديها.

وتابعت كلامها مرتعشة: «كان موتي مؤكّداً. وعندما اقترب الذئب مني، نابحاً مكشراً عن أنيابه، تملكني رعب هائل. وأطلقت صرخة عالية. وقبل أن تنالني مخالبه، قفز إنسان من الطرف الآخر للطريق، ووقف بين الحيوان وبيني. وتلقى

Twitter: @ketab_n

الضربة الأولى. وتقاتلا قتالاً ضارياً. وزاد من هول تلك اللحظة، أن الذئب امتنع عن العواء، كما لم تصدر نأمة عن الرجل الذي يصارعه. ودار صراع وحشي صامت. ما شعرت به في تلك اللحظات يفوق الوصف. وذهب ظني إلى أن الشاب الذي يُصارع الوحش هو أخي غيل».

وخلال رواية الصراع، ضغط أنطونيو يدي أخته بين يديه.

واستمرت إينز في روايتها: «استمر الصراع لأكثر من عشر دقائق. وبعدها، سقط الذئب صريعاً إذ خنقته يدا مخلصي الذي اقترب مني. وبإمكانك أن تتخيل كم كانت دهشتي هائلة عندما أدركت أنه لم يكن سوى خوان الأبريدي...».

وصرخ أنطونيو بدهشة عظيمة: «خوان الأبريدي!».

«نعم يا أخي. أدين بحياتي له. والتمس مني أن أسمح له أن يرافقني إلى المنزل. وأصر على أن أُقسم بألا أخبر أحداً بما حدث. ومنذ ذلك الوقت، حافظت على قسمي».

سأل أنطونيو: «هل رأيته بعدها؟».

«رأيته مراراً. فمنذ تلك اللحظة لم أعد أستطيع أن أمتنع عن حبه».

ولفظت الكلمات الأخيرة، وقد تضرجت وجنتيها حمرة. فأخفت وجهها في صدر أخيها، الذي لامست قصتها واعترافها مشاعره بود.

Twitter: @ketab_n

وبعد هنيهة صمت، قال: «أتعلمين يا إينز، إن كان يبادلك الحب أيضاً؟».

«لم تحدثني شفتاه عن حبه قطّ، لكن عينيه فعلتا ذلك مراراً. يزين طوق من الزهور نافذتي كل صباح. وقبل ذهابه لقتال عدو بلدنا، وجدت زهرتين مجدولتين مع زهرة الثالوث، رمزاً للوفاء الأبدي.

وبنبرة حكيمة قال أنطونيو: «إن سلوكه نبيل حقاً. انهضي يا أختاه. ارفعي وجهك النقي كالفكرة الأولى لطفل. أنا، أخوك أنطونيو، سأحميك من الآخرين. إذا استسلم أبي لنوازع الكراهية ولعن حبّك، وإذا فعل أخونا الكبير الأمر عينه، فلسوف لن أنكص عن مؤازرتك، بعد أن علمت بما حصل. وعندما يعلم غيل ووالدي مثل ما أعرفه، فأنا واثق أنهما سيباركنك باعتبارك صانعة السلام بين عائلتينا، وهو ما توجّب ألا ينهار، سيُعطيانك يا إينز بركتهما، كما أفعل أنا».

ورمت إينز نفسها بين ذراعي أخيها، الذي حضنها بود مُغطياً وجهها بالقبلات.

قالت: «أحسنت صنيعاً بأن وثقت بك، يا أخي». وانثالت دموع الفرح من عينيها.

Twitter: @ketab_n

«نعم يا أختي. لقد أحسنت صنيعاً. لا أنسى أنك تحبينني بشغف فريد. ومع أنني أتّخذ مواقف أبي نفسها، وكذلك أحترم رأيه، فإنني أحس أن أفكاره في هذا الصدد لن تكون كما ترغبين. ارتاحي الآن يا إينز. وانتظري عودتي. فمن يدري ماذا قد يحدث؟».

«لنوكل الأمر إلى الرب يا أخي».

«ليكن ذلك. لنوكل كل شيء إلى الرب».

«وليحمك الرب يا أنطونيو».

وتعانقا مرّة أخرى. وشرع الفتى في تنفيذ وصية أبيه.

Twitter: @ketab_n

4
المبارزة

على الهضاب الغربية للتلال التي تمتد من «ليزا» إلى المحيط، شوهد فارس مدرع ينهب الأرض بسرعة نارية.

ولم يصعب الاستنتاج أن ذلك الفارس الشجاع عائد لتوّه من معركة شرسة دلت عليها درعه وخوذته المحطمتين، والنقص في الريش من مقدمة قبعته. سار وحيداً، من دون معاون أو حامل لدرعه. وتوقّف بين الفينة والفينة، ليتعرّف البلاد التي يعبرها. وامتدت يده متأهبة لاستلال السيف كلما سمع صوتاً قريباً منه. وتأهب لاستعمال فأسه كلما اعترض طريقه راع أو مسافر. وانعطف جاعلاً بلدة «غوازويتا» على يمينه. وتتبع مجرى «أوروميا»، سائراً صوب حدود حصن «أرتيكوزا» الذي يشتهر بترسانة أسلحته في تلك الأرجاء. ويُشاهد قرب الحصن قصر منيف، طالما أعجب به زوار تلك المعاقل. وفي تلك الأيام، لم تكن تلك الأشياء موجودة. ولاحقاً، شيد القصر والحصن في أشد الأمكنة وعورة من ذلك الوادي.

ووصل الفارس عند الغروب إلى قمة أحد الجبال التي تحيط

Twitter: @ketab_n

بالوادي. ولم تترك الشمس سوى خيط من أشعة ذهبية في أفق بعيد. وتوقّف الفارس ليُحدّق في هذا المشهد للحظة. ثم تابع رحلته منحدراً إلى الوادي المظلم.

وتوقف عند صخور متكسرة تعترض المجرى المائي الذي سار بمحاذاته في قعر الوادي. وترجّل. وارتمى على العشب، تاركاً حصانه ليرعى العشب بهدوء. واستعد لهنيهة من الراحة. وعندما نهض على قدميه، أصدر الحصان صهيلاً، فجاوبه صوت مماثل. وقفز الفارس على جواده. واتّخذ وضعية الدفاع، إذ توقّع أن يُباغت بهجوم. وأصاخ السمع قليلاً. ولم يطل به المقام حتى سمع خبب قوائم جواد وصليل درع حديدية. ولم يعطه الظلام فرصة لرؤية تلك الأشياء، حتى من مسافة قريبة. ولم يستطع الفارسان رؤية أحدهما الآخر إلا عندما صارا متواجهين تماماً.

وسأل الواصل الأول: «من هذا الذي يسير هنا؟».

وردّ الثاني: «من ذا الذي يسأل؟».

قال الأول: «أنا فارس».

«هل أنت من الغوييزكويين أم من النافاريين؟».

وجاءت الإجابة: «بل من الغوييزكويين».

«لقد رحمك الرب. إننا أصدقاء».

وإذ قالا ذلك، اقتربا أكثر من بعضهما بعض. وسأل أحدهما

Twitter: @ketab_n

الآخر: «إلى أين تتجه؟».

«صوب أويارزون»

«أأنت من تلك المنطقة؟».

«بل من منطقة قريبة منها».

«في تلك الحال، يكون اسمك مشهوراً. فما عساه يكون؟».

«خوان الأبريدي».

«وأنا غيل الإيتويوزي».

وتلت ذلك لحظة صمت. وتواجه الرجلان. إنهما الابنان البكران لعائلتين لم تنقطع الصراعات بينهما خلال السنوات الأخيرة.

وقال غيل لخصمه: «التقينا على أرض محايدة أخيراً. فهاهنا، لا يقيد سلاحانا احترامنا لقوانين بلدنا، ولا يتوجب علينا نسيان خصوماتنا كي نحارب عدواً مشتركاً».

وبنبرة حزينة، رد الأبريدي: «أحسنت قولاً. ولكن لماذا نحتكم إلى السيف في ظل انتفاء أسباب الحقد بيننا».

وسأل غيل: «ولمَ لا؟ هل نسي خوان الأبريدي أن والده أهان أبي؟ أم أنه يظن أن جرح رأس العائلة لا يوجب على أبنائها الانتقام؟ بل يجب أن يفعلوا، ليكونوا أبناء بارين!».

ورد الأبريدي: «أصغ إلي يا غيل. لا أنكر وجود خصومة

Twitter: @ketab_n

بين عائلتينا منذ رفض أبي تزويج أخته لأبيك، على رغم وعده بذلك. لكني أعرف أيضاً أنه قبل تلك الحادثة المشؤومة، سادت صداقة بين العائلتين. فهل ننسى كل الذكريات الجميلة بسبب لحظة، ربما ساد فيها الطبع الحاد لأبوينا؟ لنكن عادلين يا غيل. لنحاول مرة أخرى وَصْل السلام الذي حرص عليه الأجداد. لننه خصوماتنا. لنكن أخوة يا غيل. ثمة الكثير من الأعداء في سهوب بلدنا، ما يوجب ألا ننهك أنفسنا بصراع الأمعاء في البطن».

وبنبرة سخرية قاسية، رد غيل: «أُقسم بإيماني أنه يجدر بك استبدال الدرع والسيف بثوب الكهنوت. وأؤكد لك أنك أشد شبهاً بمبشر منك بفارس يتجلبب بالدرع».

«لا أستحق هذه السخرية منك يا غيل. إذ تعلم جيداً أن الخوف لم يكن الحافز لقول ما قلته، بل الرغبة أن يسود التفاهم الحسن والانسجام بيننا».

«وأنا لا أرغب في ذلك ولا أشجعه. وُلدت في ظل الخصومة بين عائلتي الأبرايد والإيتوريوز، ولسوف أموت في ظلها أيضاً».

وبصوت يائس، ردّ خوان: «كم أنت مُخطئ!».

ورد غيل بنبرة متعالية: «هذا ليس من شأنك. على أي حال، ليس من مسؤوليتك أن توليني النصيحة. ولن أصغّر خدي لأطلب نُصحك».

Twitter: @ketab_n

«لا أسعى أن أكون مستشارك. بإمكانك أن تُنمي حقدك كما شئت، وليجعل الرب أمده قصيراً. وعلى الأقل، لنفترق من دون أن نستعمل أسلحتنا».

وقال غيل ضاحكاً: «كم أنت حذر وحكيم يا أيها الأبريدي. ولربما كنت أكثر من مجرد حكيم. ربما كنت جباناً».

«قبل أقل من ثمانية أيام، شهدت أنت بنفسك على عكس ذلك»، أجاب الأبريدي باذلاً جهداً كبيراً ليسيطر على غضبه.

«صحيح ما قلته. غير أنني أعتقد أن ثمة فارقاً كبيراً بين قتال جنود عاديين وغزاة فرنسيين، وبين المعركة مع ابن بيدرو الإيتوريوزي».

«ليس لهذا السبب أنفر من قتالك. إذ تعلم جيداً أنني لا أهابك».

« إذن، فما هو حافزك؟».

«أخشى من العواقب التي ستترتب على هذا القتال. ليحرسك الرب يا غيل. وأُعلن أنني لا أرغب في قتالك».

ومع تلفّظه بتلك الكلمات، أمسك بلجام حصانه، واستدار مبتعداً وصرخ الإيتوريوزي بغضب: «لا ترغب به. إذن، سأرغمك على القتال». وهمز حصانه. ووجه لكمة قوية إلى وجه خوان الأبريدي، عند اقترابه منه.

Twitter: @ketab_n

وتوقّف الأبريدي. ونظر إلى غيل.

وترجّل عن حصانه. وشهر سيفه. وكمثله فعل الإيتوريوزي. واستعدا للمعركة. ولم تكن البقعة التي تواجها فيها أفضل مكان لقتال. فلم تكن الأرض مستوية لأكثر من مسافة ياردتين. وطوّقتها الأجمات الكثيفة والنباتات البرية من ثلاث جهات. وانفتحت الجهة الرابعة على هاوية سحيقة. وكان الوقت ليلاً. وهطلت بعض قطرات المطر. وبادر غيل الإيتوريوزي بالهجوم. وسقط سيفه بقوة على كتف خوان الأبريدي. وبدأت المبارزة. وردّدت الصخور المتكسرة والأمكنة الخالية أصداء تلاحم الأسلحة. وأضاءت التماعات البرق الآتي من قمة الجبل، أسلحة المتحاربين لبرهات خاطفة. وبمعونة ضوء غامض، ظهر غيل مصمماً على الاحتفاظ ببريق الغضب في عينيه. ووجّه ضرباته بضراوة. في المقابل، كست سيماء خوان تعابير الأسف. والتزم جانب الدفاع. واستمرت المعركة. ولم يسمع في تلك الأرجاء الموحشة سوى قعقعة السلاح. ولم يكسر صوت آخر الصمت. لم ينبس الرجلان ببنت شفة. ولو تصادف مرور شخص ما، لظن أنه يرى صراعاً بين شبحين هائلين في الظلام.

وفجأة، سُمِع صوت سقوط ثقيل. وقال صوت: «انهض يا غيل. لننه هذا الصراع».

Twitter: @ketab_n

«كلا، وحق إيماني. كلا. لتقتلني وأنا ممدّد على الأرض».

«لا أفعل ذلك. لننه معركتنا. وليذهب كل في طريقه».

وجاءت الإجابة الوحيدة على هذا الاقتراح، بتجدد قعقعة السلاح. ولكنه لم يستمر طويلاً هذه المرّة. فقد سُدّدت ضربة هائلة. وسُمِعت صرخة ألم. ثم ساد صمت عظيم.

في ظلال الأشجار شوهد فارس ينساب مبتعداً. وعلى الطريق الحجري خبب حصان يعدو بكل قواه.

Twitter: @ketab_n

5
مايتاغاري[1]

وتصرّم الليل. وقبيل هبوط الليل في اليوم التالي، وجد خوان الأبريدي نفسه جالساً في ركن قصيّ من وادي أرتيكوزا[2]. وعلى مقربة منه، عند الصخور المتكسرة، وقف حصانه يرعى العشب بهدوء.

وأحسّ بخدر يسري في أطرافه، فيمنعه من الحركة. وطفق يتذكر الأحداث التي جرت في اليوم السابق. وتذكّر المواجهة مع غيل، وحواره معه، والمعركة التي تلته، والطريقة التي انتهت بها. ونظر إلى الصخور، التي جلس عند قاعدتها. ولاحظ أن المعركة التي خاضها ليل أمس. وعرف سبب الخدر الذي يسري في جسده. وأنبأته الفجوات في دروعه بقية القصة. أحس بخدر في كل جسمه. وبجرح في رقبته. وكاد يقضي جوعاً لأنه لم

(1) مايتاغاري: يُطلق أهالي الباسك هذا الاسم على جنية الفُرس. وبحسب الخرافة أو التقليد الشعبي، وقعت هذه الجنيّة في حب فلاح اسمه لوزايد. واصطحبته الى قمة جبل «أهونيمندي»، حيث قصرها المُشاد من الكريستال. ومن الواضح أن هذه الخرافة تشكل أساس هذه القصة (المؤلفة).

(2) أرتيكوزا: حصن وقصر ينتصب قرب الشواطئ التي تحمل اسمه. ويقعان في قلب جبال «غوازويتا»، على بعد عشرة كيلومترات من تلك البلدة. وتحيط بهما غابات وحقول كثيفة (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

يأكل شيئاً خلال الساعات الثلاثين الماضية. وبدت كل معونة إنسانية مستحيلة في هذه البقعة المعزولة. وفي الصيف، تُغطي غلالة خضراء صفيقة هذه المكان الموحش. وتتداخل الأشجار، بأغصانها الممتدة وجذوعها الباسقة، ببعضها بعض، فتعيق دخول ضوء الشمس. ويجري نهر في قعر هذا الوادي الضيّق، فيغسل الأشجار ويحافظ على طراوة المكان. وتنمو الأعشاب بكثافة. ولا شيء أكثر إثارة لشاعرية الخيال من تصوّر نزهة ليلية تحت ضوء القمر في هذه العزلة.

وتصنع الجداول بحيرات صغيرة ساكنة في أمكنة متفرقة. وتظهر تلك البحيرات مُحاطة بزهور البنفسج والورد البريّ وزهر عين الظبي. وعند التأمل في الأسطح الراكدة لتلك البحيرات الصغيرة، لا يسع المرء إلا أن يظن أنه ينظر في مرآة محاطة بالأزهار.

وأحياناً، تُحلّق الطيور قرب أسطح المياه، فتُلقي عليها ظلالاً زمردية. ويروي بعض الإيل ظمأه بالشرب من الجداول التي ترفد النهر. وقد يُسمع غناء فائض لعندليب مستوحد على الأغصان. وأحياناً، تتردد أصداء هديل حمامة حزينة. لا شيء سوى تلك الكائنات يُعطي دفقاً من الحياة في هذه البقعة الفائقة الرومانسية.

وأحسّ خوان الأبريدي باقتراب الليل. وكذلك عرف أنه لن يحتمل الجوع حتى الصباح. فنادى على حصانه، الذي

Twitter: @ketab_n

كان يرعى بهدوء. وصهل الحيوان الوفي بفرح استجابة لنداء صاحبه، وخبّ نحوه. وبعد بضعة محاولات فاشلة، استطاع الفارس أن يمتطي الجواد. وتابع سيره. ووجد خوان نفسه يسير بمحاذاة إحدى البحيرات الصغيرة عند حافة المنحدر الصخري الذي سقط عنه الليلة الماضية. ومن وسط البحيرة، تصاعد بُخار شفاف. وعند أطرافها، تلاقت المياه مع أطراف النباتات المتسلقة، التي تأتي من الصخور المتكسرة المُشرفة على البحيرة. وغطت الأوراق الكثيفة تلك النباتات، فصارت تشبه الستائر المتشابكة التي تغطي الشبابيك الصينية. وهزّت النسائم أغصان شجر الصفصاف، كما يهتز الريش على خوذة محارب.

وبدهشة، لاحظ الفارس في ظلال الليل، تموّجات مفاجئة على صفحة الماء. وظنّ أيضاً أن النباتات المتسلقة شرعت في التباعد. ورأى أغصان شجر الصفصاف تتحرك بطريقة غريبة. وأخيراً، سمع صوت غناء رخيم يأتي من البعيد، فتخترق نغمات الصوت روحه. وصار السطح الكريستال للماء منقسماً. وفي غلالة من ضباب متصاعد من البحيرة، رأى جمعاً من الفتيات ذوات جمال لا يُضارع. وزُيّنت حواجبهن بالورود. وكست أجسادهن الهوائية غلالات بيض. وزيّنت نجوم من ضياء أكاليلهن. وارتفعن بنعومة فوق سطح الماء. وشبكن أيديهن. وشرعن في دندنة موسيقى ذات

Twitter: @ketab_n

وقع خاص غريب. وسحرت أصواتهن الفارس. كسا الشحوب وجوههن جميعاً. وغطت أهداب طويلة عيونهن شبه المغمضة. وانسكبت جدائل شعرهن على مرمر أكتافهن. وبعد هذا الظهور المثير، اقتربن من الفارس، الذي شرد لبّه في هذا المشهد الخلاّب. وأحطن به من كل جانب. وأمسكت إحداهن بعنان حصانه الذي سكن وكأنه أسير سحر. وقبضت أخرى على الركاب، كي يترجل الفارس.

ونزعن عنه درعه المحطمة. وأزالت أخريات سلاحه وترسه ورمحه الثقيل. وصار منزوع السلاح، مُشوش اللب، إذ رأى نفسه مُنتظراً ومُتلقياً لخدمات موكب من الجميلات. وسمح لنفسه بالراحة تحت ظل شجرة الصفصاف. لقد غطّت أغصان تلك الشجرة مدخل كهف كسا الرمل الأصفر أرضه. إنه مدخل البيت المسحور لمايتاغاري التي تقطن جبال البرينيه. وكل ما تستطيع المخيلة الشرقية أن تتصوره من أعاجيب، كُدّس في الكهف الذي أخذت الفتيات يعتنين بالفارس فيه. وتوسطته قبّة مشعة كأنها قطعة صقيلة من الألماس.

وارتفعت أعمدة من النباتات المزهرة، فبدت كأفاع من كريستال وملتفة على بعضها بعض، ومزدانة بالورد. وحملت تلك الأعمدة القبة المشعة. وتشابكت أزهار البنفسج بعضها

Twitter: @ketab_n

مع بعض. وامتزجت أوراق الكرمة مع زهور حمر كالعقيق. وضُفرت تلك المكوّنات لتشكّل إكليلاً أخّاذاً. وتحت غلالة من مياه صافية كالكريستال، ظهر عرش من طحالب، ناعم كالفرو، وليّن كالأرائك التي يتمدد عليها أمراء الشرق. واضطجعت بنعومة على ذلك المقعد، ملكة منزل الأعاجيب. وغطى خفّان أحمران قدميها. وانسدل حجاب موشى بالذهب على وجهها. وعندما دخل الفارس إلى ذلك المرقد، وقفت الملكة ورفعت حجابها. وثبّتت عينيها المكحلتين على خوان الأبريدي.

وظلّلت شفتيها المرجانيتين ابتسامة ساحرة. وأشارت بيدها اللدنة إلى الفارس بالاقتراب. وأطاع الفارس. واختفت الفتيات اللواتي اعتنين به قبلاً. وبصوت موسيقي قالت: «لقد جئت يا خوان الأبريدي إلى هنا في ساعة محرّمة. وفاجأتني في منامي. وقاطعت أعيادي. إنك جدير بالعقاب».

وأجاب الأبريدي الذي أذهله أن يرى جمالها الخارق: «سيدتي! لم أكن أعلم بأمر وجودك في هذه الأرجاء. وإذا ارتكبت فعلياً الجرائم التي تحدثت عنها، فالسبب يعود إلى سوء طالعي».

Twitter: @ketab_n

وأجابت الفاتنة: «لقد سامحتك لهذا السبب. بل لو لم أتدخل، لكان موتك محتّماً».

«كيف حدث ذلك؟ هل أنت على علم...»

«أعرف كل شيء. لقد راقبت معركتك الليلة الماضية وأنا مختبئة في الظلال. وعندما انغمست في المعركة، فقد حميتك بأسلحة غير منظورة عملت على تخفيف ما يصلك من ضربات. ولولاها لانشطر جسدك إلى قطع متناثرة».

«وكيف أستطيع أن أشكرك على هذا الجميل الكبير؟»، قال الأبريدي مأخوذاً بجمال مايتاغاري وكلماتها.

«أنت لا تدين لي بشيء. لقد أنقذت حياتك، وهذا أمر مؤكد. إذن، أنا أمتلك حياتك في المستقبل».

«سيدتي». صرخ الفارس، ناظراً برعب إلى محدثته.

«لا تشك في ذلك يا خوان. وأظن أن عليك أن تشكرني على هذا البرهان الجديد الذي قدمته عن مشاعري. وأعتقد أنني أستحق مقابل حبي أن تضحي بحبك لإينز الإيتوريوزي!».

وأحنى خوان الأبريدي رأسه. ولم يُجب.

وكسرت مايتاغاري صمت الفارس.

«ألن تُجيبني؟ فليكن كذلك. إن مخلوقاً مثلك يتجرأ على اختراق نطاق سيطرتي، يجب ألا يخرج منه ثانية!».

Twitter: @ketab_n

وسرعان ما اتخذت الساحرة، تحت العينين المذهولتين للفارس، شكل إينز الإيتوريوزي وصوتها ونظراتها وتعابيرها.

ظنّ خوان الأبريدي أنه في حلم. وفارقته الآلام التي كانت تملأ جسده. ولم يعد يُحس بقرص الجوع. وبدا كأنه يشرب الحياة من عيني مايتاغاري.

وتابعت حديثها مقتربة منه: «اصغِ إليّ. سأجعلك أسعد المخلوقات الفانية. هل ترغب في المجد؟ أطلبه. وستجد تاج الفاتحين مطوّقاً جبهتك. هل تسعى للثروة؟ أطلب. وسترى قصوراً تشاد لأجلك، ودروعاً برّاقة للدفاع عنك، وأثواباً فاخرة لتكسوك، وغلماناً وجوار لخدمتك. هل تتشوق للحب؟ ستنال حبي إلى الأبد... حب ليس له نظير على الإطلاق».

«آه يا إينز. يا إينز» صرخ الفارس نصف المسحور. وأمسكت ساحرته بيده. وطبعت قبلة على جبينه. ولكنها يد باردة كالثلج، وافتقدت القبلة الدفء. وأحسّ خوان برعب ممزوج بالفرح يسري في عروقه. أحسّ بتأثير أجواء السحر التي عملت على إراحته. وأحسّ بدوار. وارتفع ضباب أمام عينيه. وأغلق نوم ثقيل جفنيه. وسقط على سرير الفرو، وقد غلبه النوم تماماً.

وجمعت مايتاغاري فتياتها. ورششن مياهاً معطرة على السرير. ولوّحن فوقه بمراوح من ريش كي يزلن حرارة الجو. ووضعت

Twitter: @ketab_n

الساحرة بضع قطرات من سائل أحمر على شفتي الفارس.

وفجأة، خبا شعاع الضوء الغامض الذي أنار الغرفة بطريقة فاتنة. وحدّقت الساحرة بوجه الفارس النائم. وكست وجهها معالم حزن عميق. وحدث الأمر عينه مع فتياتها اللواتي شرعت أجسادهن الأثيرية بالتلاشي مع خفوت الضوء. واختفين. إذ تحوّلن ضباباً سرعان ما تبدّد، تاركاً الكهف في ظلمة دامسة. وردّدت الصخور قعقعة لأسلحة فرسان. ورمت الشمس بحمرتها على جبل «آيا».

استيقظ خوان الأبريدي ليجد نفسه في الغرفة المسحورة عينها، وقد استراح رأسه قرب قدمي مايتاغاري التي ثبتت عينيها المخمليتين على عينيه، كي تتلقى النظرة الأولى لاستيقاظه. وفي وسط الغرفة، مُدّت مائدة سخية عامرة بأنواع المأكولات الشهية.

Twitter: @ketab_n

6
الحاج

شق أنطونيو طريقه إلى المعسكر. وأخبره بعض الجند أن خوان الأبريدي اختفى. وأعلموه أن أخيه غيل عاد إلى المنزل، بعد أن رأى هزيمة الجيش الفرنسي- النافاري كما تيّقن أن صفوفه لن تعاود الالتئام. وعلم أن الفرق الأخرى تعود أدراجها أيضاً. وعندما عاد الشاب إلى منزله، اعتقد أنه سيسمع شيئاً ما عن مصير حبيب أخته. وعقد العزم على الدفاع عن ذلك الحب. ولكنه دهش إذ لم يجد سوى غيل، الذي أعلن أن خوان الأبريدي قضى في المعركة. وأصابت تلك الأخبار المُفاجئة قلب إينز بجرح بليغ. واستولى عليها حزن عميق. وببطء، شرعت حمى عنيدة تضرب كيانها.

وصارت تصرف أياماً بأكملها جالسة إلى جذع الشجرة التي رأت حبيبها عندها للمرة الأولى. واعتادت أن تنهض ليلاً، لتتسلل كالشبح وتجوب الغابات والحقول المنعزلة. وذبلت عيناها وشحّ فيهما الضوء. واستحال جسدها البضّ إلى ما يشبه الهيكل العظمي. وصارت الفتاة الرائعة الجمال شبحاً تتردّد فيه

Twitter: @ketab_n

بالكاد نسمة ضئيلة من الحياة، فيبدو على وشك الانطفاء. ولم يبلسم حزن قلبها لا النصائح الحكيمة من أبيها، ولا الأحضان الحنونة لأمها وإخوتها. لقد أصغت بصبر إلى كلمات أبيها المفعمة بالحكمة، لترد عليها بابتسامة حزينة. واستجابت لحنان أمها بفيوض من الدمع.

وتصرمت شهور على هذا الحال. ووصل الخريف إلى أواخره. وطارت أوراق الشجر في غيوم تقودها ريح شمالية–غربية، فكأنها أسراب عصافير مهاجرة. وظهرت في زرقة السماء أوائل غمام الشتاء. وتقاصر النهار على نحو ملحوظ. وتمطّت الليالي على الأرض. وتابع مرض إينز مساره. وتوقّف تجوالها ليلاً.

وذات ليلة، تجمّعت العائلة قرب المدفأة. وأخذ رب العائلة يُبارك، وهو حاسر الرأس، اللحم القليل الموضوع على المائدة الفلاحية. وانتحى غيل الايتوريوزي بنفسه في ركن في الغرفة.

ومدّدت كتالينا خيوط الكتان، ملقية نظرات حزينة، بين الفينة والفينة، إلى إينز. وأسندت الأخيرة جسدها على وسائد. وانسدل جفناها في شبه إغماضة. وتشابكت يداها اللتان صارتا شفافتين. وتمتمت بضع كلمات. وتبسّمت بطريقة سوداوية حرّكت دموع من أحاطوا بها. وبكت دومنيكا مغطية وجهها بيديها. وبانتفاضات من يديه، أمسك أنطونيو سكين الحطّاب

Twitter: @ketab_n

ليصنع من قطعة خشب الجوز شيئاً لأخته السائرة نحو الموت.

وران صمت عميق على المنزل. وفي الخارج، زمجرت عاصفة. وفجأة، سُمِع قرع على الباب.

قال ربّ الأسرة: «انهض إلى الباب لترى من يقرعه، يا أنطونيو».

أجاب الصوت عند الباب: «غريب فقير ضلّ طريقه ويبحث عن مأوى».

رد بيدرو الإيتوريوزي: «ليحم الرب المُسافر! أدخل أياً كنت، فإن أبواب الباسكيين مشرعة دوماً أمام المسافر».

ودخل الغريب. ونهض الشباب. واقترب أنطونيو من المسافر ليساعده. وتركت كاتالينا دولاب الغزل، لتضع صحناً على الطاولة. وأشار رب المنزل إلى الغريب بأن يجلس على المقعد قرب المدفأة، وهو مقعد الشرف المُخصّص للأكبر سناً في العائلة، ولكنه يُمنح دوماً للغريب والمسافر.

وارتدى الداخل رداء الحج. وبدا في الخمسينات من العمر. لحيته كثيفة مُجللة ببياض الثلج. ووجهه ضارب إلى السمرة. وشعره مُجعّد. في عينيه نظرة ذهول. ورجلاه قويتان، على رغم مظهره المُتْعَب المُنْهَك. واكتسى بثوب خشن ممزق مُجعّد. وغطى رأسه بقبعة من لبّاد. وأسند جسده بعصا طويلة.

Twitter: @ketab_n

واستجاب الغريب لدعوة رب الأسرة. وجلس على المقعد الذي أعطي له. وتناول العشاء الذي مُنِحه.

وعندما انتهى من عشائه، طلب بيدرو الإيتوريوزي منه أن يتلو صلوات الليل لهم. وردّد المُسافر الصلوات بصوت مرتعش. وما إن اختتم الحاج صلاته، حتى ندّت تنهيدة عميقة، فتلفّت الجميع. ونهضت إينز مرعوبة، وقد فقدت عيناها بريقهما إذ اتسعا إلى آخرهما. وصدرت بضعة أصوات من فمها الجاف والشاحب.

ومدّت يديها وذراعيها كمن يريد أن يجذب إليه شيئاً بعيد المنال. وبقيت على هذا الوضع لهنيهات، مثيرة دهشة الجميع. ثم حرّكت رأسها ببطء. وسقطت على مقعدها. وعادت إلى ما كانت فيه.

وسألت دومنيكا بصوت رقيق: «إينز. أترغبين في قول شيء ما؟».

«لا شيء يا أختاه. لا أريد شيئاً. شاهدت حلماً سعيداً، لكنه لن يتحقق».

وعادت الشابة اليافعة إلى صمتها.

«يا ابنتي المسكينة»، قالت كاتالينا، وغصّت بالدمع.

وردّت إينز بحزن: «ودّعيني يا أمي. أحس أن الحياة تفارقني

Twitter: @ketab_n

بسرعة وأنني سألتحق سريعاً بحبيبي».

واحتضنت يدا كاتالينا كفي إينز، وشرعت تقبلهما بشغف.

سأل الحاج بيدرو: «هل ابنتك مريضة؟».

وأجاب الأخير: «لقد حلّ غضب الرب على هذا المنزل. فلنبارك اسمه المجيد. ولنتقبّل إرادته المُحبّة».

وتأثّر الحاج بالتسليم المؤمن الذي أبداه رب الأسرة، فتحركت في مقلتيه الدموع.

وسأل الحاج: «هلاّ أخبرتني بسبب مرضها؟».

«يقولون أنها تموت من الحب!».

تمتم الحاج: «يا للطفلة المسكينة».

وردّ الشيخ: «أحسنت قولاً. إنها طفلة مسكينة. قبل أن يصيبها هذا الحال، كانت عروس شيخوختي وفرحة قلبي».

«لربما هجرها حبيبها».

«كلا. كان حبيبها رجلاً شريفاً نبيلاً من الجوار».

وتابع الحاج أسئلته: «فماذا حلّ به؟».

وأحنى شيخه رأسه قائلاً: «لقد مات. وجاءت وفاته في وقت كنّا فيه على وشك إخماد النزاعات بين عائلتينا التي امتدت سنوات طويلة. وعندما علمت بسلوكه النبيل حيال ابنتي، كنت على استعداد أن أُدخله إلى بيتي. يا للأسف. إن الحقد عاطفة ملعونة.

Twitter: @ketab_n

ولقد عاقبني الرب على احتضاني هذه العاطفة في قلبي لسنوات طويلة. لتتمجد عدالة الرب، التي جعلت منّا مثالاً لذلك».

وألحّ الشيخ: «هل بإمكانك أن تخبرني كيف مات؟».

«لقد قضى نحبه بالطريقة التي أشتهيها لأبنائي: في أرض المعركة».

وأدار الحاج رأسه ببطء نحو غيل، الذي بدا صموتاً قلقاً وغير قادر على النظر إلى أخته.

وبعد لحظات، قال الشيخ: «هل قلت أنه قضى في أرض المعركة؟»..

ورد بيدرو: «نعم. ذلك ما كان».

«وقاتل أعداءه؟».

«نعم. قاتل أعداء الوطن».

ونظر الشيخ مرّة أخرى صوب غيل الإيتوريوزي.

اقترب أنطونيو من أبيه، إذ أصغى بانتباه لحواره مع الغريب.

ومرّة أخرى، سأل الشيخ: «ومن أخبرك بذلك؟».

«ابني. لقد رأه ميتاً».

«أي منهما؟ الشاب الذي يُصغي إلى حديثنا أم غيل، الذي أراه شارد اللب».

«غيل!»، ردّ الشيخ مستغرباً من إصرار الرجل، ومندهشاً من معرفته اسم ابنه.

Twitter: @ketab_n

وبصوت رنّان، عقّب الغريب قائلاً: «في هذه الحال، لقد أخبرك غيل الإيتوريوزي كذبة».

صاح الابن الأكبر للعائلة، قافزاً على قدميه ومُهدداً الغريب بقبضة يده: «لا يكذب غيل الإيتوريوزي قطّ».

«اضرب أيها الفارس. اضرب هذا الوجه المُجعّد، لتكون المرّة الثانية التي تضربه»، قال الشيخ محنياً قامته.

وانهارت يد الشاب إلى جانبه. وفقدت قدرتها حيال هذا التواضع الملائكي.

وخاطب الحاج غيل قائلاً: «أيها الفارس. أمام والديك، أُدينك بجريمة اغتيال مقيتة».

وارتجف الحاضرون عند سماعهم لتلك الكلمات. وتمالكت إينز نفسها، لتُركّز انتباهها على هذا المشهد.

وصاح غيل في غضب: «هذا كذب. لتشكر حظّك أنك تحت سقف بيتنا، ولتشكر عمرك أيضاً لأنه يمنعني من اختراق جسدك بسيفي».

وصرخ بيدرو الإيتوريوزي: «منذ متى نسي ابني قوانين الضيافة؟ اجلس يا غيل. ولا تفه بكلمة أخرى».

والتفت إلى الغريب، وأضاف: «أيها السيّد، لقد رميت بتهمة ثقيلة. هل بإمكانك أن تُثبتها؟».

Twitter: @ketab_n

وردّ الغريب: «وفي هذه اللحظة، إن شئت ذلك».

«باشر ذلك فوراً». قال الشيخ، ولاحت على سيمائه كرامة قاض يوزّع العدالة بحياد.

وبصوت عال، قال الغريب: «أُقدّم نفسي لك، يا أيها الفارس الغوبيزكواني غيل الإيتوريوزي. فقبل أربعة شهور، من قابلت في وادي أرتيكوزا».

ارتجف غيل. وحدّق في الغريب برعب.

«ما هو الحوار الذي دار بينك وبين خوان الأبريدي؟ ألم يعرض عليك السلام؟».

وأجاب المُدان بصوت خفيض: «نعم».

«ألم يعدك بصداقة حميمة دائمة؟».

«بالتأكيد».

«وبدل قبول الصداقة، ألم تتعمد إهانته؟».

ورد غيل بدهشة: «نعم. هذا صحيح أيضاً».

«ألم تضف إلى الإهانة، ضربة على وجهه بقفازك الحديد؟».

ولم يُجب غيل.

وتابع الرجل: «أجب يا غيل الإيتوريوزي. وعندما امتشقتما السلاح، ألم تكن أنت من التزم الهجوم، فيما اكتفى خصمك بالدفاع عن نفسه، وبصد الضربات من دون أن يجرحك؟».

Twitter: @ketab_n

ولم يُجب غيل عن هذا السؤال أيضاً. وشرع أبوه بإلقاء نظرات الغضب عليه. وارتجف أنطونيو من الاستياء. وعقدت الدهشة ألسنة النسوة.

وتابع الغريب: «الآن، أقدم نفسي إليك أيها الشيخ. لقد تعثّر ابنك ووقع أرضاً، وكان بوسع خوان الأبريدي أن يقتله، وعن حق. لكنه مدّ له يده، وأعانه على النهوض. وعرض عليه السلام مُجدداً. وبدل القبول، سدّد غيل إلى خصمه ضربة قاصمة ذهبت عميقاً في عنقه. ثم رماه من قمة الصخور إلى هاوية سحيقة. كيف تُسمي ابنك الآن؟».

وبملامح مُتجبّرة، صرخ الشيخ: «غيل! غادر بيتي فوراً. لن أعترف ببنوتك بعد الآن».

ومع سماعها لعنة الأب التي تلت الوقائع المُذهلة التي كشف عنها الحاج، ندّت من إينز صرخة، ثم سقطت فاقدة الشعور. وجمّد الرعب كاتالينا ودومنيكا.

واستجاب غيل لأوامر والده. وهمّ بمغادرة المنزل. فاستوقفه الغريب.

«انظر إلى أختك، التي تُشارف على الهلاك. وتُبّ عمّا فعلت. فلربما ما زالت الفرصة قائمة لتصحيح ما وقع من شرور».

واقترب الغريب من إينز، التي أفلحت رعاية أمها وأختها

Twitter: @ketab_n

في إخراجها من إغمائها. وأمسك بيدها. واستدار نحو الجمع العائلي. وقال:«لو أن خوان الأبريدي ما زال حيّاً، هل كنت لتوافق على زواجه من إينز؟».

واقترب أنطونيو بسرعة من الغريب. ونزع عنه قبعته. وسقطت الذقن البيضاء، التي كانت مزيفة. وظهرت الملامح النبيلة لحبيب إينز، أمام الجميع. وانفجر الجمع بصيحات الفرح والدهشة. ونظرت إينز إلى حبيبها. ومررت يديها على عينيه. وتحرّكت شفتيها بصلاة صامتة لبعض الوقت. وبصمت، طوّقت رقبة خوان الأبريدي بذراعيها، مُطلقة سيولاً من دموع الفرح. وكان صمتها متعالياً.

شحب غيل من الرعب، إذ ظنّ أن هذا الظهور هو شيء خارق. واعترف بسوء فعلته. واقترب من خوان. وبصوت ملوّه التأثّر قال له: «يا أخي. دافع عني أمام محكمة أبي العادلة».

ومع مطلع الشهر التالي، احتُفِل بزواج الابن البكر لعائلة الأبريدي من إينز الإيتوريوزي، بفرح متميّز.

Twitter: @ketab_n

خاتمة

بعد يومين من زواج إينز وخوان، سُمعت تنهيدات عميقة تصدر عند منتصف الليل في وادي «أرتيكوزا». وفي ضوء القمر، من المستطاع مُشاهدة طيف امرأة عجوز قرب الجدول، وقد تمزّق جسدها بالجراح. وظهرت قربها أطياف يضربنها بلا كلل ولا شفقة. وذلك كان العقاب الذي أنزلته عليها مايتاغاري ساحرة جبال البرينيه.

ولم يعد لتلك الساحرة الجمال الذي خلب لُبّ خوان الأبريدي قبلاً. وحلّت محلّه ملامح غضب. واستعرت في عينيها نظرات نارية. وصار فمها لا يصدر سوى الصراخ. وبدت أشبه بملاك هوى من عليائه. ودأبت على استجواب العجوز قائلة: «أيتها المرأة الملعونة. أي نفع لشرابك السحري؟ ألهذا طلبت مني دم من جرح في اليد اليُسرى لطفل؟ لتنزل اللعنة عليّ! لقد وثقت بقوة شرابك أكثر من تأثير سحري».

وصرخت ساحرة «زالدن» التي هي المرأة العجوز المُعاقَبَة: «سامحيني». وردّت الساحرة: «سأسامحك قطعاً، عندما أرغب في تمزيق جسدك إرباً إربا. موتي أيتها الكذّابة، مثلما عِشت».

Twitter: @ketab_n

ولم تحتمل ساحرة «زالدن» المزيد من العذاب القاسي، فسقطت ميتة.

واختفت مايتاغاري، مع حاشيتها السرابية، في الكهف الفاتن. ولم تغادره لوقت طويل. وعندما ظهرت ثانية، كان حصن «أرتيكوزا» مُشاداً. واحتضن طنين المطارق الضخمة وأعمدة النار الهائلة الصادرة عن كور الحداد، ما أجبر مايتاغاري على مغادرة تلك الأرجاء. والتجأت إلى أركان قصيّة أخرى: سلسلة جبال «أهونيمندي».

واسودّ لون جثة الساحرة العجوز، فكأنه الفحم. وحمله نسر ضخم بمخالبه. وطار به في الهواء.

Twitter: @ketab_n

رولدان وبوق قرن الثور
1

سمعت هذه الخرافة للمرة الأولى، عندما كنت يافعاً. وتستحق الظروف التي سبقت سماعها وتلته، أن تُروى، رغم أنها لا تتصل بالخرافة نفسها. ولأنها كانت من طبيعة خاصة، لم تنمحِ من ذاكرتي البتة. وأعتقد أنها قد تزيد الفضول للخرافة نفسها. فقد حملت سنة 1829 أحد أقسى فصول الشتاء الذي عرفته البلاد. وسقطت الثلوج على أنحاء إسبانيا كلها. وحتى في المقاطعات الجنوبية، حيث يعتبر سقوط الثلج ظاهرة استثنائية تحدث ربما كل قرن، تغطّت الأرض بطبقات سميكة من الثلج.

وأثار ذلك دهشة قاطني تلك المقاطعات. وبديهي أن قسوة الشتاء أظهرت قوتها الأشد في مناطق الباسك. إذ انسدت الطرق التي تصل القرى والمدن بعضها ببعض. ودُفنت البيوت تحت الثلوج لأيام. وواجه المسافرون الذين اضطروا لعبور الجبال مخاطر مخيفة، مثل احتمال الضياع في المفازات، والسقوط في الهوّات، وهجمات الذئاب الجائعة التي لم تجد

Twitter: @ketab_n

طرائدها المعتادة في الغابات فارتدت إلى سكان الجبال. في ذلك الوقت، كنت في «غوازويتا»، وهي بلدة في جبال الـ«نافار»، استمتع بأكل اللحوم من البلدة التي طالما أمدّت مائدة عمي بالأطايب. وعمل الأخير كمُداوٍ في تلك الأرجاء، إضافة إلى كونه صيّاداً مفعماً بالحيوية. واحتجزتنا عاصفة الثلج المُفاجئة. فلم نُغادر المنزل. وانتظرنا بتشوق أن تخفّ حدّة العاصفة، كي نخرج إلى الغابة لاصطياد الأيائل والخنازير.

ومع بداية يناير، أخذت السماء تصفو. وشرعنا نناقش مدى قدرتنا على الانطلاق في اليوم التالي. وذات مساء، قدم إلينا أحد الباسكيين المُخلصين. وقدّم نفسه باعتباره حاملاً لرسالة من الكاهن المُقدّم عن دير «رونسيزفالي». ووُجهّت الرسالة إلى عمي. وفيها، التمس الكاهن المُقدّم من عمي، مُستحلفاً إياه باسم صداقتهما القديمة، أن يأتي لزيارة الدير.

وطلب منه أن يصطحب قطيعاً من الكلاب المُدرّبة، لاصطياد دب أسود ضخم ظهر في تلك الأرجاء، مُلتهماً كل كائن حيّ يصادفه.

وصباح اليوم التالي، شققنا طريقنا الى الدير. وكنا مجموعة من أربعة عشر صياداً وعشرين كلب صيد انتقيت بدقة من فصيلة الدرواس في جبال الـ«نافار» ومن فئة الكلاب البوليسية.

Twitter: @ketab_n

ووصلنا إلى مقصدنا عند حلول الليل في اليوم التالي. وفي طريقنا، عبرنا وادي «بازتاين» الجميل، ومفازات «إيغوي»، وسهل اسمه «برادو الرولداني». وخضنا في المياه والثلوج التي وصلت إلى خصورنا في بعض الأحيان.

Twitter: @ketab_n

2

وعندما وصلنا إلى دير «رونسيزفالي»، استقبلنا رئيس الدير مع رجاله، وهم قوم رائعون يحيون في سلام رائع. وجالت عيناي على أبراج الدير العالية وعلى أسواره المتينة. ولاحظت أن بيوت قاطني هذه البلدة تتجمع قرب الدير. وأحسست أن المشهد قد نقلني إلى عصور خلت. وعادت ذاكرتي إلى الوراء سبعة قرون، كي تتصور العمل الضخم الذي أدى إلى انبثاق هذه الأشياء. وبالاختصار، وجدت نفسي في القرون الوسطى.

وبدت هذه الفكرة حقيقية أكثر عندما نظرت إلى مجموعة الكلاب التي ترافقنا، وإلى الأردية التي لبسناها، وإلى الكاهنين اللذين أتيا ليستقبلانا. وزادت رسوخاً مع مجيء مجموعة من السكان المحليين الذين راحوا يتأملوننا باهتمام، بعد أن حيوا رئيس الدير باحترام. وتجاوب معهم الأخير بأن منحهم بركاته بابتسامة أبوية، عبّرت عن حبه لأولئك الناس. والحق أنه استحق محبة هؤلاء القوم أيضاً، إذ لم يلجأوا إليه في الصعاب والمشكلات من دون أن يعودوا مرتاحين ومتخففين من همومهم.

أغلقت أبواب الدير الضخمة. وعبرنا باحته الفارهة يسبقنا

Twitter: @ketab_n

خدم حملوا بأيديهم المشاعل. وقادونا إلى غرفة رئيس الدير، كي نريح أقدامنا المتعبة ونجفف ملابسنا المبلّلة. كانت تلك الأمور كلها جديدة علي. واستمتعت بإطلاق العنان لخيالي كي يركض خلف الأفكار التي ولّدتها هذه الأشياء. مثلاً، قلت لنفسي: «هذا هو النبيل الذي يحكم القلعة»، فيما نظرت إلى رئيس الدير الذي جلس قرب الموقد حيث يشتعل حطب ضخم الحجم. وتابعت تخيلاتي الصامتة: ومن يحيطون بنا هم رجاله. وأما نحن، فإننا حاشية جئنا نعرض تحالفاً مع جيرانهم.

إذن، فمن أكون؟ أنا الصبي الذي يحمل الترس، وينزع الخوذة التي تغطي عيني الفارس المُفضّل، ويمسك بالركاب كي تترجل سيدة القلعة عن الحصان، ويحمل الترس وأدوات قتال سيّده يوم المعركة، ويطلق صرخة «ألهالي» إذا شردت الإبل من حظائرها...».

وقطع حبل تخيلاتي صوت الجرس داعياً إلى العشاء. فنهضنا جميعاً على هذا الصوت المُحبّب. وغادرنا معزل رئيس الدير. وانتظرتني مفاجأة، جاءت منسجمة مع الصور التي رسمها خيالي الجامح. امتدت مائدة عامرة ضمت أفخاذ غزلان وشرحات ضخمة من لحوم الماشية. ورُصت تلك اللحوم ساخنة في أطباق فخارية كبيرة.

Twitter: @ketab_n

وإلى جانبها، وُضِعت دزينات من سمك الترويت في مقالٍ نحاسية برّاقة. واستُكمِلت المائدة بأباريق كبيرة تحتوي على شراب «بيرالتا» الحلو المذاق، ونبيذ «توديلا» وشراب التُفّاح المُعتّق. وذكّر العشاء بالموائد التي ذكرها هوميروس في ملاحمه، والتي ما فتئت أصداؤها تتردّد حتى الآن. وعلى رغم سخاء المائدة، فقد اختفت بسرعة لحوم الإيل والماشية وأسماك الترويت. وظلّت الأطباق فارغة كأنما بفعل السحر. واستهلكت أباريق النبيذ ومُعتّق التفاح بسرعة لا تُصدق. وأعترف انني كنت ممن ساهموا في ذلك الاحتفاء العظيم.

وخلال العشاء، تركزت الأحاديث على الهدف الرئيسي من زياراتنا. وأنبأنا المُقدّم أن الدبّ الضخم الذي قطعنا مسافة بعيدة لاصطياده، هو وحش كريه إلى درجة لم يعد أحد يجرؤ على المغامرة بالخروج من الأحياء السكنية، لئلا يلتهمه ذلك الوحش.

«سنحضر لك ذلك الدبّ غداً»، ردّ عمي الذي كان ينتظر رحلة صيد الدب بتحرّق صيّاد شغوف.

وردّ الكاهن: «كونوا حذرين في أفعالكم، أيها الأصدقاء... لقد أُخبِرْت أنه وحش ضخم فَطِن، وأنّ نهمه يتزايد باطّراد».

فقال عمي: «صدقني. لن يعود لديك ما تخافه. أعدك أن يُدفّئ جلده قدميك هذا الشتاء».

Twitter: @ketab_n

«ليُعنك الرب على سحقه! وأؤكد لك أنك ستُجزى بشكر كثير. فالحق أن الصيادين والحطّابين لم يعودوا يجرؤون على مزاولة عملهم. واعتكفوا مذعنين للتهديد الذي يُمثّله الوحش».

«في أي ناحية تكثر مشاهدة الدب؟».

«على الدرب الذي يفضي إلى بوابة فرنسا».

«ماذا؟ ممر رولدان؟».

«نعم. لقد شوهد كثيراً في تلك الناحية».

«حسناً. والآن، فلنخلد إلى الراحة أيها الرجال. إذ يتوجب علينا النهوض باكراً».

وتلا الكاهن صلاة التبريكات. وظهر خدم يحملون المشاعل. وقادوا كل ضيف إلى غرفته. ولأن العشاء طال، فلم ينته إلا الساعة الحادية عشرة ليلاً.

ودخلت مع ابن عمي فرانشيسكو إلى غرفة صغيرة، فيها شباكان ضيّقان يشرفان على جزء من الغابة المُجاورة. ولم أستطع مقاومة المنظر الغريب الذي امتد أمام ناظريّ. فقد أضاءت حزم بيضاء باردة من ضوء القمر ذلك السهب المُغطى بالثلج. ولم تظهر في السماء غيمة تعكر صفو ضيائه. فتحت نافذة. واستغرقت في تأمل المشهد.

ومنذ وصولي الدير، سوّغ لي خيالي أن أتصور أنني في

Twitter: @ketab_n

زيارة لقلاع من القرون الوسطى، تكتظ بالغلمان والسيدات والفرسان. وتعاظم ذلك الخيال عندما أطللت من تلك النافذة القوطية الطراز. امتد أمام عيني سهل واسع مكسوّ بالثلج، كأنه، وقد أضاءه القمر، سجادة بيضاء ضخمة لا تشوبها شائبة. وفي نور القمر، التمعت رقاقات الثلج، كأنما السهل زُيّن بأحجار الزُبرجد والزمرّد. ومن بُعد، ظهرت بيوت بلدة «بورجت» شبه غارقة في ضباب خفيف. وإلى اليمين، برزت القمم الشاهقة لمرتفعات «إرو»، لترسم قوساً متعرجاً يتبدّد في الأفق البعيد. وإلى اليسار، بدا المشهد أكثر إدهاشاً. إذ لوّحت أشجار ضخمة من البلوط والصنوبر العتيق، بقممها الضخمة وأغصانها العارية، بأثر من رياح ثلجية.

وانتصبت جذوعها السود لتتناقض مع السهب الذي بيّضه الثلج. ولاحت أغصانها الضخمة وكأنها أذرع شبح هائل. وران صمت عميق، لا يكسره سوى خرير جداول بعيدة. وفجأة، التقَطَت أُذناي صوتاً غير مألوف. ابتدأ الصوت ضعيفاً ونائياً. وتضخّم. وتزايدت حدّة الصوت الواصل إلى أذنيّ، فهل أنه وهم؟ وتصادف أنه وهم حقاً. فقد شطّ بي الخيال إلى حدّ استعادة المعركة الضارية بين جيش شارلمان الفرنسي وأهالي جبال الـ«نافار». وأسمعني خيالي قعقعة الرماح وصهيل الخيل وقرع الحجارة

Twitter: @ketab_n

أثناء صدمها الدروع الحديد للفرسان، وصفير السهام الطائرة في الهواء، وصيحات المنتصرين، وتنهدات الجرحى وأنين الموتى. ولا يصعب، والحال كذلك، فهم سبب توهمي لذلك الصوت!

وهممت بإغلاق النافذة لأخذ قسط من الراحة في سريري، حين سمعت صرخة ذات رنين. وردّدت أصداءها الصخور والوهاد. وأُعيدت. واستطالت. وتردّد صداها، مرّة تلو المرّة.

وصرخت: «فرانشيسكو: ماذا يعني هذا الصوت؟».

واستيقظ عمي. وفي تلك اللحظة، أُعيدت الصرخة مرة أخرى.

ونهض من السرير مُتّجهاً صوب النافذة. وقال: «أوه! أعرف هذا الشيء. إنه رولدان ينفخ بوقه طالباً العون».

وسألت: «من يكون رولدان هذا؟».

«ألا تعرفه؟ حسناً. إنه واحد من اثني عشر نبيلاً فرنسياً قضوا على الحدود». ثم عاد إلى سريره.

لم أتمالك نفسي من الضحك. واغتاظ فرانشيسكو من تشكيكي. فقد كان ممن يعتقدون بالأشباح والسراب وظهور الأرواح.

وصرخ بغضب: «يا لليهود العديمي الإيمان. أهذا كل ما يُدرّسونكم في الجامعات؟ ألا توجد ساحرات؟ ألا تؤمن بظهور أرواح الذين قضوا ولم يُدفنوا؟ اذهب إلى أكويلار في ليلة سبت.

Twitter: @ketab_n

وفي صبيحة اليوم التالي، أخبرني عما رأيت. اذهب الآن، في هذه اللحظة، وامشِ في الغابة الممتدة أمامنا. وسر خمسين خطوة بانتظام. وأؤكد أنك ستلتقي بـ «باسا خوانا».

وردّدت: «يا ابن العم. لا تأخذ الأشياء إلى عمقها. فأنا لا أعرف شيئاً عما يجري هنا».

وبعد خمس دقائق أخلدت إلى السرير. وغططت في النوم فوراً.

Twitter: @ketab_n

3

ما إن لامست خيوط الفجر الأولى الجبال المحيطة بالدير، حتى جُمعت الكلاب في باحته الواسعة.

وأيقظ نباحها الصيّادين. وأرغمتني الضجة المتأتية من نباح الكلاب المتوثّبة ونفير أبواق الصيّادين على الاستيقاظ. فنزلت لأنضم للجمع. ووقف عمي القائد منتظراً بوجهه البشوش الممتلئ سعادة، والذي تطفر من مسامه العافية. وأحاطت به مجموعة الصيّادين. ولحق الكاهن المُقدّم بهذا الجمع. ولم يتوقّف عن إسداء النصح لنا بضرورة رفع حدّة التنبّه، والتحوّط بانتباه لاحتمال أن يهاجمنا الوحش الضاري على حين غرّة. والتأم شمل الجمع. وأزجينا التحية لرئيس الدير الذي ودّعنا بالقول: «ابقوا متجمعين، أيها الشباب. وصوّبوا بدقة. أتمنى لكم صيداً موفقاً. وسأذهب لأحيي قُدّاساً».

وبعد ربع ساعة من مغادرتنا الدير، غابت عن أنظارنا جدرانه. وتوغّلنا في الغابة. وشكّل كل اثنين منا مجموعة منفصلة، بهدف مسح الغابة بدقة. وشكّلنا نصف دائرة، كالمقاتلين في الحرب. وسارت الكلاب في المساحات الخالية بيننا. وبهذا التشكيل،

Twitter: @ketab_n

أخذنا نبحث صعوداً وهبوطاً. ولم نترك ركناً ولا صخرة ولا أكمة من دون تفتيش. وذهبت تلك الجهود عبثاً. لم يظهر الوحش وجهه. ولم نعثر على أي أثر مهما ضؤل، ليدلّنا إلى مكمنه.

واستمر البحث من دون هوادة حتى الساعة الثالثة عصراً، حين رأينا أنه من الحكمة العودة إلى الدير قبل هبوط الليل، لئلا نتوه في تلك الأرجاء المنعزلة المُغطاة بالثلج والجليد. وتزايد تعبي جراء صعود الآكام وهبوطها. ولم أكن معتاداً على هذه المشقات. وتأذّت يداي من أشواك النباتات البرية والعيدان التي اضطرت لإزاحتها أثناء تسلق التلال ونزول الصخور. وارتميت على أقرب صخرة، طلباً للراحة. وجلس فرانشيسكو إلى جانبي. وتمدّد الكلب «تايغر» على قدمي، وشرع في لعق يديّ. واستعد الآخرون للعودة.

وقلت: «لنجرع شيئاً من الخمر. ثم حدثني عن قصة رولدان وبوق الثور».

وبنبرة متأسية، أجاب ابن عمي: «آه. لو أمضيت، مثلي، أسابيع في الغابات، لا يرافقك سوى كلب وبندقية، لعلمت كثيراً عن تلك الأشياء التي تجهلها كلياً. انهض واتبعني، إن كنت مُصراً على معرفة شيء ما عن ذلك الفارس الفرنسي. وسأُخبرك بما سمعته عنه. لكن، يجب ربط تلك الحكاية بالبقعة التي سقط فيها ذلك الشجاع ومات».

Twitter: @ketab_n

نهضت. وسرنا باتجاه القمة التي أشار إليها. والحق أنه يصعب تخيّل عظمة أشد تعالياً من تلك القمة.

وتشكّل نموذجاً للجبال البكر المتخاتلة في الباسك، بأشجارها السامقة، وصخورها العتيقة كالأزل، وأوديتها السحيقة، وقممها التي كلّلتها الثلوج قروناً طويلة، وشلالاتها التي تنسكب مدرارة منذ بداية الزمن. شكّل المرتفع الذي وقفنا على قمته نقطة انفصال بين هضبتين، يمتد بينهما وهد عميق يمثّل بداية الحدود مع فرنسا.

وصلنا إلى البقعة التي قضى فيها رولدان، والتي ما فتئ ينفخ منها بوقه. ويُقال إنه بمجرد سماع نفير ذلك البوق، تتفتت الصخور من تلقائها، وتشتعل النيران في الجبال، وتختفي المنازل في عواصف هوجاء.

«أخبرني. أرجوك أخبرني، عن ذلك كله».

«حسناً، اسمع».

«عاش في فرنسا إمبراطور أو ملك، مضى من فتح إلى آخر، شاقاً طريقه صوب الشمال. واصطحب في غزواته نبلاء من مملكته زادت الانتصارات من شجاعتهم وجرأتهم. وفي عدادهم، برز رولدان. وبزّهم جميعاً، مثلما يتشامخ شجر الزان على بقية أشجار الغابة. وأنهك السير شمالاً الملك، إذ لم يجد

Twitter: @ketab_n

سوى الثلوج والجليد. وقرّر العودة أدراجه إلى وطنه. وبعد أن أنجز استعداداته، اندفع فاتحاً صوب الجنوب.

أترى ذلك الجبل هناك، الذي تشمخ قمته حتى إنها تكاد تختفي في الغيم؟ بين ذلك الجبل و«إليزوندو»، لم يكن يشاهد سوى أرتال الجند. ونأت الأرض بثقل جموع الرجال الذين غطاهم الحديد. ولم يكن بوسعنا مقاومتهم، لأننا لم نكن على استعداد. وتابعوا زحفهم إلى «بامبلونا». وفتحوها. وانتشروا على الشواطئ. وآلت لهم السيادة. وبعد أن أسكرتهم نشوة النصر، عادوا إلى فرنسا. وتركوا معاقلهم الحصينة. وفي ذلك التراجع، كمن لهم العقاب على طموحاتهم. إذ دخل الجيش بأكمله هذه المفازة الجبلية الضيّقة المغطاة بالثلج، متجهاً نحو القمة التي تنظر إليها.

وارتصف الجنود في صف ضيّق، كأنهم أفعى طويلة، يشكّل الإمبراطور في رأسها في «أولـرون»، فيما قبع ذيلها، حيث كان رولدان عند جدران دير «رونسيزفالي». ولآلاف المرات، ردّدت الهضاب والوهاد أصداء أغانيهم، ورجّعت خبب حوافر جيادهم. ووصل رولدان إلى حرج الصنوبر الذي تبدو صغيراً من بُعد كأنه أشجار كلس مصطنعة. وانغمس في حوار مع جنوده، حين حملت الريح، فجأة، صوت اندفاع رهيب. ورفعوا أعينهم

Twitter: @ketab_n

إلى الأعلى برعب. وشاهدوا كتلاً ضخمة تتساقط من الأعالي متدحرجة على المنحدرات بصوت مزمجر مهيب. وتساقطت عليهم كحبات بَرَد. وسحقتهم كالسحالي.

وسألت وقد أخذتني الرواية: «وما كانته تلك الكتل المتساقطة؟».

وأجاب: «صخور بحجم هذه التي نجلس عليها. وامتلأ المضيق الجبلي بصراخ يثير الذعر. وهُرِست أجساد الجند الذين رفعوا تروسهم الحديد لرد سيول الصخور. ولم تستطع تلك المقاومة الهزيلة، صَدّ غائلة الكُتل الساقطة. وكُسرت أذرعهم. وطُحنت أجسادهم. وسُحِقت الجياد والدروع والجند والمركبات. وخلال بضع دقائق، تغطى الدرب الجبلي بالأجساد الميتة وبذلات الحديد المتكسرة والدروع. وحده رولدان بقي سليماً. واستل بوقه. ونفخ به طالباً العون. ولم يتلق جواباً سوى صرخة الحرب الباسكية المرعبة إيررنزي. فقد ملأ الباسكيون هذه الجبال كلها، ليقذفوا الصخور والرماح وحتى كتل الثلج القاسية. وقادهم البارون لوبو، الذي راقب هذه المقتلة من البقعة التي تقف عليها بالذات. وبذل رولدان جهوداً مضنية لملمة صفوف جنوده. وصعد مراراً المنحدرات الجبلية لإزاحة العدو عن المرتفعات. وفي بعض الأحيان، وصل إلى مسافة ياردتين من

Twitter: @ketab_n

النقطة التي تقف عليها. وأعاقه جذع شجرة ضخمة متدحرجة على المنحدر، إضافة إلى الأنواع الأخرى من المقذوفات.

وإذ أنهكه هذا الصراع المُضني، اتّخذ من جثث الجند أسواراً. وشرع ينفخ في بوقه، ويلعن ابن عمه الإمبراطور. وشرع صوت بوقه في الخفوت تدريجياً. وفي جهد أخير، استل رولدان سيفه. وقذفه باتجاه أعداه. وضرب السيف هذه البقعة تحديداً، فغار فيها حتى مقبضه. وصمت البوق. مات رولدان، مُخرّقاً بالسهام ومُحاطاً بجثث جنوده. ولا يزال شبحه يحوم في هذه الأرجاء المنعزلة، مُسلحاً حتى الأسنان. ويُشاهد عند المرتفعات، إذ يُدحرج الصخور لتسدّ هذا الممر، الشاهد الصامت على اندحاره. وفي بعض الأحيان، عندما تُهدّد كارثة هذه النواحي، يُسمع بوقه المُميّز مُعلناً بنفخاته التهديد الآتي. وعندما تضرب تلك المأساة المتوقعة، تشهد هذه الأرجاء ليلاً ظهور خطوط طويلة من الجنود يتراقصون على نغمات بوق قائدهم. وحينها، الويل للباسكي الذي يتصادف عبوره قربهم».

سألت: «ما الذي يحدث له؟».

«يموت متكسراً على الصخور».

«إذن، فإذا ظهر الآن هؤلاء الجنود المنحوسون...»

«يكن الموت من نصيبنا فوراً»، أجاب فرانشيسكو.

Twitter: @ketab_n

رددت مبتسماً: «هممممم! أنا لا أخاف الموت بل إنني أخاف اثنين من الأحياء، أكثر من رولدان وجميع جنوده الموتى».

فأجابني بنبرة ازدراء: «أتخاف من الأحياء؟ عندما تكون بندقيتي المحشوة بجانبي، فإنني لا أخشى أحداً».

وهمّمت بالإجابة، وحتى بإثارة نقاش، عندما سمعنا الصوت الغريب والصرخة ذات الرنين التي سمعناها الليلة الفائتة.

«إنه ولا ريب رجلك رولدان، وقد جاء ليمزقنا إرباً»، قلت ضاحكاً، من دون تفكير بحقيقة تلك الصرخة. وفوجئت برؤية الرعب وشحوب الذعر يكسوان سيماء ابن عمي، الذي وضع إصبعه على شفتيه في إشارة إلى وجوب التزامي الصمت. وانتصبت أذنا «تايغر» وأخذ ينبح بطريقة غريبة. وفجأة قال فرانشيسكو: «لقد نسيت بوقي».

«ما الأمر؟».

«ماذا؟ أنظر إلى اليمين. ألا تسمع؟».

وسمعت بوضوح أصوات تكسّر الأغصان الجافة تحت خطى ثقيلة لجسم يقترب ببطء. لكنني لم أفهم جليّة الأمر.

«هل أنه رولـدان، يقترب منا؟». سألت في شبه تصديق لإمكان تحقق هذا الافتراض.

«من يدر؟ اهدأ يا تايغر»، أجاب مُهدئاً الكلب الذي رقد

Twitter: @ketab_n

فوراً عند قدميه. كان الليل يطبق بسرعة، في ما ينزل الضباب من القمم ليلف الأودية. وملئ الفضاء من حولنا بصرخة مجلجلة، أشد عتواً مما سمعناه قبلاً. وإذ استدرنا إلى مصدر الصوت، ظهر دب أسود ضخم على بعد ثلاثين خطوة منا، ووقف يحدّق بنا.

وما إن رأيته، حتى تجمد الدم في عروقي. وبطريقة آلية، رفعت بندقيتي لأصوّب عليه. ولكن فرانشيسكو أمسك ببندقيتي. ومنعني من الرمي على الدب.

«لا تُطلق النار، وإلا هلكنا!».

وتقدم الحيوان ببطء، مزمجراً بفرح لرؤية طرائده في متناول يده. وظهر حجمه الضخم. وبدا متوحشاً فعلياً بمخالبه ذات الأظافر المقوّسة.

«لنستعد لعراك بالأيدي والسلاح الأبيض»، قال فرانشيسكو. وأضاف: «آه، لو كنت وحدي»، واستلّ سكين الحطّاب.

وسألت: «ماذا كنت لتفعل حينها؟».

«لرميته إذ ذاك برصاصة، ثم طعنته بهذه السكين».

«أطلق النار عليه، إذن. وسأرميه بالنار، إن لم تصرعه».

«هذا محال. إن لم تقتله الرصاصة، فسيُهاجمنا. لو كنت وحيداً لدافعت عن نفسي. ولكني لا أستطيع أن أدافع عنك أيضاً».

قلت: «إذن، لنهرب».

Twitter: @ketab_n

«نهرب منه؟». أجاب، ونظر إلي من رأسي إلى قدمي «أنت متعب. وقبل أن نبتعد عشرين خطوة، ستمسك مخالبه بعنقك. كلا. لنفعل شيئاً آخر».

أضفت: «لنقاتله حتى الموت».

وأطلق الوحش زمجرة مدوية. واندفع صوبنا. وبسرعة مماثلة، قفز ابن عمي واضعاً جسمه بين الوحش وبيني. واشتعلت عينا فرانشيسكو بوميض غريب. وأمسكت يده اليمنى بسكين طويل، شرعت تهتز بقوة على رغم قوة إصراره الخارق.

كاد القتال أن يغدو غير متكافئ، لولا ظهور محارب آخر في ساحة المعركة، عندما أصبح الدب على مسافة قريبة منا. فبعد اكتفائه بالخرخرة والمراقبة، قفز الكلب «تايغر» على الدب، مُظهراً القوة والحذق اللذين يشتهر بها نوعه. وتعلّق برقبته. وأطاح به، وسقطا أرضاً متدحرجين. وهاج الدب بغضب رهيب. وأطلق عواءً متوحشاً. وجلس فوق الكلب وواجه الأخير هجمات الدب بالذكاء والفطنة التي دُرب عليهما.

صرخ فرانشيسكو: «لقد نجونا».

قلت: «لنطلق النار»، وقد مددت يدي إلى بندقيتي.

وصاح فرانشيسكو: «اصمت، بحق السماء! ألا ترى أنه إن لم نقتله، لهاجمنا فوراً؟ لنحتفظ برصاصاتنا حتى النهاية».

Twitter: @ketab_n

في تلك الأثناء، جهد الدب للإمساك بالكلب. وفي هجمة، استطاع الكلب أن يفلت، ليغرز أسنانه في الدب، مجبراً إياه على الزمجرة بقسوة.

وأخذ ابن عمي في المناداة بأعلى صوته على بقية الصيادين، أملاً أن يصل صوته إليهم، خاصة أنهم قد يكونوا قلقين لطول غيابنا عنهم. وبعد ربع ساعة، سمعنا أبواق الصيد ونباح الكلاب، وصرخات أصدقائنا الصيادين تخبرنا بقرب وصولهم إلينا.

وعندما سمع الدب ذلك الضجيج، تراجع ببطء. وأطلقنا رصاصتين عليه. واختفى في الغابة. وهرع الرجال ليصلوا إلينا، وقد أصابهم التعب والإرهاق، وملأتهم الخشية من احتمال إصابتنا بمكروه.

«بيبي! بيبي! أين بيبي»، صاح عمي بأنفاس مبهورة.

وأجبت: «نحن هنا يا عمي».

«أأنت بخير؟».

«نعم والحمد لله. ولولا فرانشيسكو، لمزقني الدب إرباً».

«يا لرحمة الرب»، قال الصيادون بصوت واحد.

«أرأيتما الدب؟».

أجبت: «نعم. مثلما أراك أمامي الآن».

«وأين فرانشيسكو؟».

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظة، سمعنا صوت طلقة في الغابة، تلتها زمجرة مخيفة.

وركضنا صوب مصدر الصوت. ووجدنا فرانشيسكو يهيئ بندقيته للرماية، بأعصاب شديدة البرودة.

وعندما رآنا قادمين، قال: «لقد أصبت الوحش. وسيكون في قبضتنا إن نحن تبعنا أثره».

وقال أحد الصيادين: «ولكن الليل قد حلّ، أيها السادة».

«وما أهمية ذلك؟». أجاب فرانشيسكو. وعلّق البندقية على كتفه. وشرع في المطاردة. وتبعناه جميعاً. وعلى الثلج، ظهرت بوضوح آثار دماء الحيوان الجريح.

وقال عمي: «لقد جُرح الوحش بالتأكيد. إذن، لنسع خلفه بحذر». وخاطبني بالقول: «يا بيبي، لا تنأ بنفسك عن المجموع. ولا تتأخر عنا».

«تعال معي!»، قال فرانشيسكو. وجذبني من يدي بحماسة، «سيتوجب على الدب أن يمزّقني، قبل أن يمسّ خيطاً من معطفك». وتأثرت بهذا الدليل القوي على صداقته، فأمسكت بيده أيضاً.

وجُمعت الكلاب. ووضع «تايغر» في مقدمها. وسرنا في صف متقارب. ووضعت أسلحتنا في حال تأهب. وتبعنا الأثر مسافة طويلة.

Twitter: @ketab_n

واقترب الليل، لكننا استطعنا متابعة البحث، بفضل التماع الثلج الأبيض. واقتفينا آثار الوحش وخيط دمه. ووصلنا إلى سهل منبسط، تحوطه صخور فتجعله أشبه بالمُدرّج الروماني. وتوقفت آثار الأقدام ونقاط الدم. واستنتجنا أن وكر الدب هو في أحد تلك الفتحات الصخرية. وقرّرنا أن نُخيّم على الثلج في تلك البقعة. واتّخذنا الاحتياطات اللازمة لقضاء الليل براحة وأمان. وأشعلنا بعض الأغصان الجافة. وربطنا الكلاب أزواجاً. وتناولنا بعض الطعام والنبيذ. واستعددنا للنوم. وتناوب الرجال الحراسة، فكأنهم حراس غابات مسلحين. وعلى رغم البرد القارس، الذي كسرت حدّته نسبياً نار المخيم، سقطنا سريعاً في النوم.

Twitter: @ketab_n

4

واستيقظنا في الصباح مبكرين، لنعاود البحث. وسرعان ما عثرنا على آثار أقدام ثقيلة في الثلج. وقادتنا الآثار إلى الطرف الآخر من ذلك المُدرج الطبيعي.

وأوصلتنا إلى قاعدة منحدر صخري، عثرنا عنده على فتحة كهف مغطى بأغصان متدلية ونباتات متداخلة. ولم يشك أحد منا أن الكهف وكر عدوّنا. وتفحصنا محيط ذلك الجبل بعناية، لكي نتأكد من عدم وجود فتحة أخرى لتشكّل مخرجاً من الكهف. وسررنا عندما لم نعثر على أي فتحة. وعقدنا ما يشبه مجلس الحرب، لنناقش أفضل السبل التي تفضي لإخراج الدب من مكمنه. وبعد نقاشات حماسية، تبنى الجميع اقتراح ابن عمي. وقضت تلك الخطة بنشر الصيّادين على المرتفعات المحيطة بالمكان، مع تمترس بقية الرجال والكلاب المُدرّبة في السهل. ثم تجميع أغصان على مدخل الكهف وإضرام النار فيها، لكي يُجبر الدخان الدب على الخروج. وانتشرنا على الصخور. وبتؤدة، تقدم ابن عمي، حاملاً سكينه الطويلة، مجموعة من الرجال الحاملين الأغصان، إلى الكهف. وغطوا المدخل بالأغصان.

Twitter: @ketab_n

وأضرموا النار. ووقف فرانشيسكو إلى يمني، واستقر «تايغر» على يساري.

ومرّت عشر دقائق من دون حدوث شيء. وذهبت بنا الظنون إلى أننا أخطأنا هدفنا. وفجأة، رأينا الأغصان المشتعلة تتطاير في الهواء وتتناثر، تحت الضربات الساحقة للدب. وظهر الوحش في السهل، مُطلقاً زعقات مخيفة، ومُلقياً بنظرات غاضبة علينا.

وعندما أدرك الدب أنه محاصر في ركن ضيّق، لم تعد لثورة غضبه حدوداً. واندفع صوب الكلاب، التي أُفلتت جميعها. واندلع قتال رهيب. وتقافزت الكلاب المُدرّبة على جسد الوحش. ونهشت أنياب الدب ومخالبه كل ما استطاعت الوصول إليه. وبعد وقت قصير، صدرت صرخات ألم لا توصف من خليط الأجساد المتصارعة. وانسكب دم غزير. وفي القتال، قضى أو جرح 13 كلباً، وتراجعت الكلاب الأخرى استجابة لنداءات الصيّادين. وأقعى الدب على وركيه منهكاً غير قادر على الحركة. وفتح شدقيه على وسعيهما، فتدلى لسانه خارجاً كأنه مكواة ملتهبة.

وصرخ عمي: «أطلقوا النار معاً». واستقرت خمس طلقات في جسد الدب. وبقوة، قفز الوحش عالياً بأثر من جروحه.

Twitter: @ketab_n

ووقف على قائمتيه الخلفيتين. وشرع يجيل النظر بالمشهد المحيط به. وبقفزات يائسة رافقها عواء رهيب وصريف أسنان، اندفع إلى البقعة التي وقفت فيها مع فرانشيسكو.

وكي يصلنا، شرع الدب في تسلق صخرة بارتفاع 16 قدماً، عند المنحدر الذي وقفنا على قمته. ولم يطلق أياً من الصيادين النار خشية أن يصيبونا خطأً.

وكذلك لم يكونوا على مسافة قريبة تسمح لهم بالتدخل لإبعاد الدب. بتمرّس غريب، تسلق الدب الصخرة مقترباً منا إلى حدّ أننا أحسسنا سخونة أنفاسه الخارجة من منخريه. وشلّت المفاجأة الصيّادين. وأخذ عمي المسكين يشحذ همتنا بكلمات شجاعة. وغطى عرق بارد وجهي. وأخذت أرتجف من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، جاهلاً ما الذي يجب أن أفعله. واستدرت صوب ابن عمي الذي أعطاني يده. وكسا وجهه شحوب الموت، فيما تمتم: «بوق-الثور رولـدان!»، وأزفت اللحظة الحاسمة. كان الهرب مستحيلاً. وتقدّم الدب. ورفع مخالبه ليضربنا بها. وقفز فرانشيسكو إلى الأمام، راسماً إشارة صليب. ورفع بندقيته. وصوب. ثم أطلق النار. أغلقت عيني. وتردّد في أرجاء المكان صرخة فرح. وسقط الدب مُتدحرجاً على المنحدر الصخري المتكسر. وتشبث به «تايغر». وأطلق

Twitter: @ketab_n

فرانشيسكو صرخة النصر إيررنزي. واندفع صوب الوحش، وغرس سكينه الطويلة في صدر الدب.

وبعد ثلاث ساعات، عبرنا أبواب الدير، حاملين معنا جثة الدب الأسود الذي أرعب الجبال المُجاورة.

واستُخرجت من جثة الوحش قرابة عشرين رطلاً من الشحم. ولسنوات طويلة، استُخدم جلده الجميل غطاء لسرير رئيس الدير في «رونسيزفالي».

ولمدة طويلة بعد هذه الحادثة، اعتدت أن أحلم برولدان وبوق الثور. وعندما تسبب الأحلام لي اضطراباً، استيقظ مذعوراً متوتراً، معتقداً أنني وقعت في مخالب الدب الأسود.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ISBN 978-9948-01-316-7
9 789948 013167